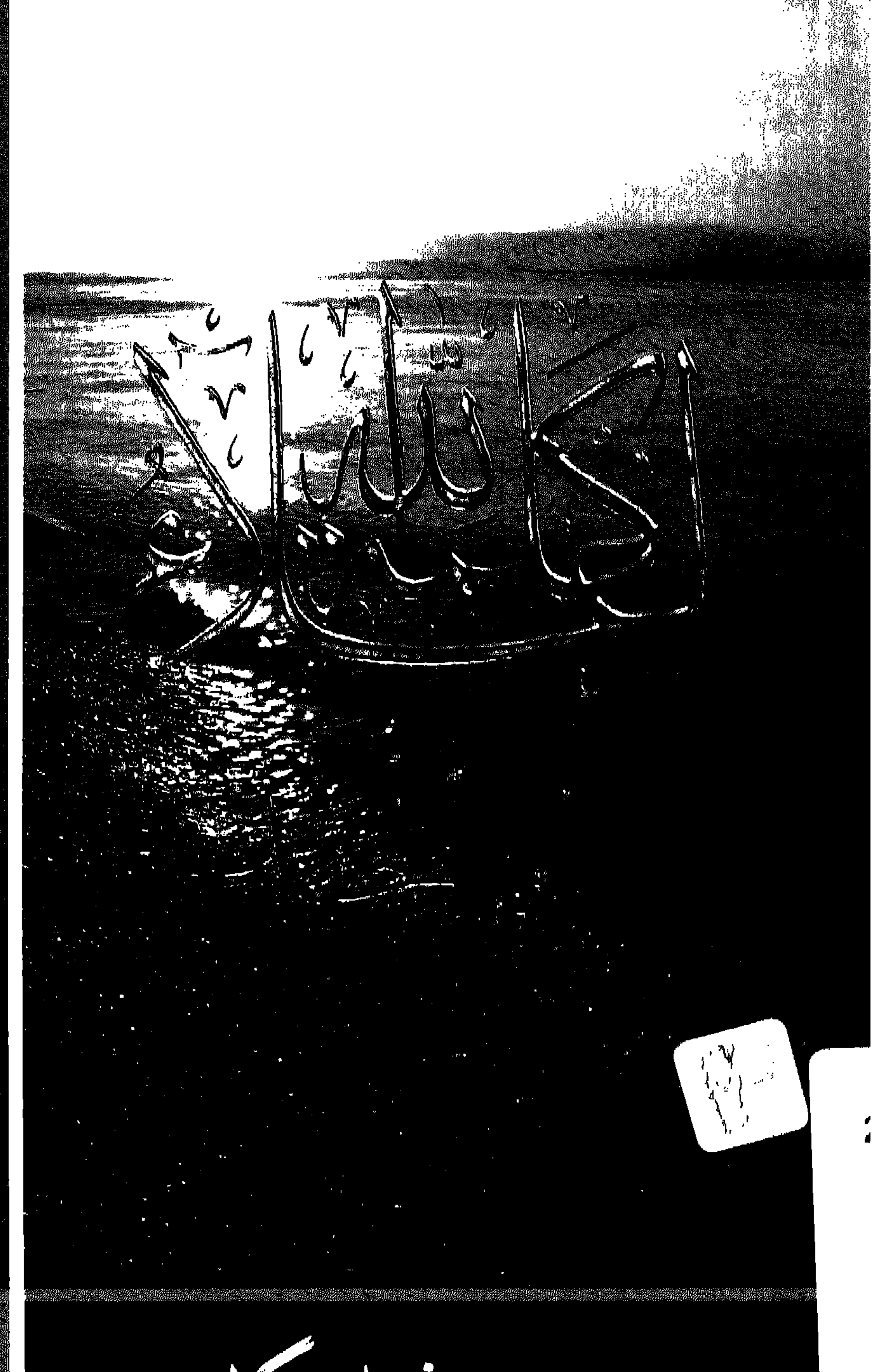
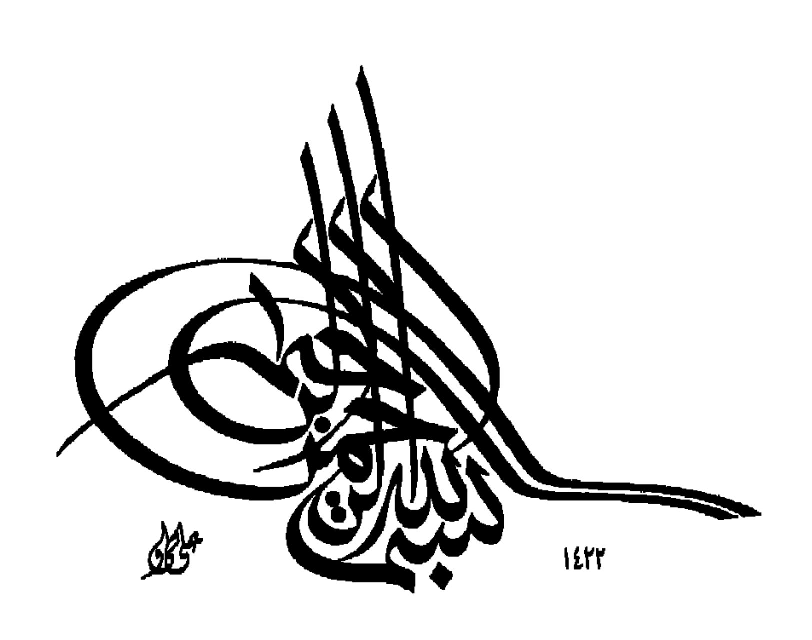


تأليف: محمد فتح الله كولن

ترجمة
إحسان قاسم الصالحي

إعلاء كلمة الله
أو
الجهاد


بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٢٢

إعلاء كلمة الله
أو
الجهاد

تأليف

محمد فتح الله گولن

ترجمة

احسان قاسم الصالحي

ترجمة كتاب

İla-yı Kelimetullah veya

Cihad

عن التركية

دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الثانية ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠٢م

الترقيم الدولي: ٤-٣١٣-٣١٥-٩٧٥ :I.S.B.N

الهاتف: (٩٠٢١٦٤٧٤٢١٨٧+)   فاكس: (١٦٤٧٤٢١٩٠٠

استانبول / تركيا

تقديم

إن الإسلام نظام إلهي شامل لجميع مرافق الحياة بمناهج متنوعة تخصها يحتضن الإنسانية كافة بل الدنيا والعقبى. وأهم مراميه رفع الإنسان إلى ذروة الإنسانية وجعله إنسانا كاملا في أحسن تقويم. فإذا ما تصورنا مجتمعاً أفراده كاملون فان الأمة الناشئة من مثل هؤلاء الأفراد سيبلغون مراتب من الكمال لا يجاريهم ملائكة السماء وينعمون بحياة النعيم ولمّا غادروا الدنيا بعد. ويمكن مشاهدة شرائح سعيدة محظوظة من المجتمعات بدءا من خير القرون إلى يومنا هذا كنماذج من هذا المجتمع .

ولكن لو أخذنا واقع حاضرنا أساسا للبحث نواجه الحقيقة الآتية وهي أن الذين يظهرون كممثلين للإسلام وناشرين له لا يفهمونه حق الفهم ولا يبلغونه حق التبليغ ولا يعيشونه في حياتهم في ضوء ما سبق بيانه أعلاه. فالنتيجة الطبيعية لهذا أن الإسلام على الرغم من انه الدين الذي ارتضاه رب العالمين لا ينظر إليه غيرهم نظر استحسان كما ينبغي.

وقد أفاضت الدراسات والبحوث حول الإسلام في تمحيص معانيه وأحكامه ومناهجه المتنوعة منذ العصور الأولى وإلى الآن بل حتى بمناقشته ومحاكمته، سواء في مستوى العلماء أو العوام. ومنها: "الجهاد في الإسلام".

فالجهاد في أحد معانيه هو بذل الجهد والسعي. والمسلمون مكلفون بالجهاد بهذا المعنى رجالا ونساء شيبا وشباباً. وقد عد هذا الجهاد الذي يتغير شكله بمقتضى الشرائط التي تتطلبها الظروف، فرضا في موضع وواجبا في آخر ومباحا في غيره.

ومن جهة أخرى فللجهاد جهتان كما ورد في الحديث النبوي. إحداهما الجهاد الذي يزاوله الإنسان مع نفسه والذي أطلق عليه "الجهاد الأكبر". والأخرى جهاد الأعداء والذي أطلق عليه "الجهاد الأصغر" وهذا النوع من الجهاد موضع نقاش في مستوى الفكر مع أعدائنا منذ القدم. أي كيف يجوز هذا النظام الذي يتعهد برفع الإنسان إلى أوج الكمال أن يقتل من لا يؤمن به، ويأسر النساء، ويهلك الحرث والنسل؟ وما شابه من الانتقادات..

والحال انهم لو أمعنوا النظر وأنصفوا ومحّصوا أحداث التأريخ لرأوا كم هي ظالمة هذه الانتقادات ولعلموا حقا انه النظام الذي يأخذ بيد الإنسان إلى كمال الإنسانية بأقصر طريق وأنفذه.

انه لحقيقة أن الإسلام منذ ظهوره وإلى الآن في صراع مع أعدائه، وحتى بالكفاح المسلح إذا اقتضى الأمر، فثم مقتول وثم قاتل. ذلك لأنه كان في فترة انتشاره في شبه محاصرة من جميع الجهات. فمن الطبيعي جدا أن يحارب ليفك عن نفسه الحصار، فاضطر إلى الحرب والقتال من أجل أن يجد فرصة التعبير عن نفسه.

كان الإسلام في خير القرون محاصرا من قبل اليهود والنصارى والمشركين كما كان مهدداً أيضا من قبل مشركي العرب والبيزنطة والساسانيين.

وكان التعصب الديني كما هو في الوقت الحاضر، وعدم ظهور النبي من بين اليهود و النصارى، وبدوره الخشية من ضياع الامتيازات المادية، وما شابهها من الأسباب.. أصبحت سببا لمقاومة الإسلام.

ومن جهة أخرى لم يكن موقف المجتمع الذي نشأ فيه الرسول ﷺ موقفا يُغبط عليه قطعاً. فالتعصب القبلي والتعصب الأعمى لمعتقداتهم ولو كان باطلا، والنظرة المشروطة مسبقا والمتباينة.. والمستوى الهابط للحياة الاجتماعية.. وتحريض اليهود.. فضلا عن صعاب لدى تنفيذ الأوامر الدينية.. والأعراب البدو الذين ظلوا معرضين عن الإسلام وخطرا كامنا على الإسلام في كل وقت... كل ذلك يمثل قسماً فقط من طوق العداء مع الإسلام. وأغلب غزوات الرسول ﷺ كانت مع هؤلاء المشركين عبدة الأصنام.

أما البيزنطيون والساسانيون فان مقاومتهم الإسلام سارت مع تمكين الإسلام لنفسه في الأرض وتزايد المنتسبين إليه يوما بعد يوم والتسارع في انتشاره. إذ من الطبيعي أن تعادي الإسلامَ عقليةٌ تتناول كل شيء بنظرة دنيوية محضة، وتتخذ المنافع المادية أساسا للحياة الدنيوية، لأن الإسلام يقلب دنياها رأساً على عقب في حاضرها ومستقبلها.

المسلمون سواء في خير القرون أو في السنين التي تلتها لم يظلموا أحداً قط في جهادهم مع أعدائهم. فلم يعتدوا على أحد.. ولم يهلكوا الحرث والنسل..

ولم يحرقوا ويدمروا القرى والمدن.. ولم يقتلوا أحدا غير المحاربين . وأبرز مثال على هذا انه لم يتجاوز عدد القتلى من الطرفين أربعمائة شخصا طوال ثلاث وعشرين سنة في حياة الرسول ﷺ المليئة بالجهاد كما يذكره الأستاذ محمد حميد الله في كتابه "غزوات الرسول ﷺ". ويمكن أن نورد نماذج كثيرة حتى من العصور التركية التي دامت تسعة قرون فضلاً عن خير القرون.

اجل، إن الإسلام قد أذن بالكفاح المسلح، ولكن اشترط لذلك عددا من الشروط منها:

آ- الدفاع عن المسلمين، دينهم و حياتهم وأموالهم ونسلهم.

ب- صيانة حرية الفكر

ج- الالتزام بالعهود والمواثيق

د- ألاّ يُظلم المسلمون ولا الذين في ذمتهم.

زد على هذا فان القرآن الكريم يصرح حتى في أحرج الظروف ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ (الأنفال:٦١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ (البقرة:٢٠٨) ويأذن بالقتال ضمن شروط معينة ليكون وسيلة للسلام العالمي.

ولكن مع الأسف أننا لم نفهّم هذه الحقائق على نصاعتها. فالحقائق التي ذكرناها نظريا هي أحداث عشناها منذ أربعة عشر قرنا من الزمان وغدت في ذمة التاريخ. ثم لم نفهمها على حقيقتها من لسان مؤرخ قدير وبأسلوب علمي حاذق، ولكن هيهات . ولأجل توضيح المسائل التي ذكرناها والتي لم

نذكرها تترتب أعمال عظيمة على كاهل مفكري المسلمين. والكتاب الذي بين أيديكم "إعلاء كلمة الله أو الجهاد" نأمل أن يملأ فراغا في هذا الموضوع.

"إعلاء كلمة الله أو الجهاد" موضوع واسع يمكن البحث فيه من جوانب كثيرة كما ذكره المؤلف في فصل "المدخل". فلو حاولنا تناول جميع جوانبه بالبحث والتدقيق فلا نقدر على ذلك حتى بمجلدات كثيرة، على الرغم من توفر الكثير من الكتب المؤلفة أو المترجمة في هذا الموضوع. ولهذا فكتاب "إعلاء كلمة الله أو الجهاد" قد تناول الموضوع من جوانب معينة. وقد بين أستاذنا المحترم في "المدخل" هذا الأمر:

أن الأصل في الإسلام هو السلم وليس الحرب، وأفضنا في بيان أن الأسباب الموجبة للحرب هي الدفاع، والحدّ من الظلم، وفتح باب حرية الإرشاد والتبليغ".

وهذا الكتاب يخاطب المسلمين المأمورين بالجهاد، فنجد الفصول الآتية: وظائف الجهاد، ما يكسبه الجهاد، معوقات الجهاد، وعشاق الجهاد الذين هم نماذج قدوة لجيلنا الحاضر تؤيد ما نقول. واعتقد أن القارئ الكريم هو الآخر سيحمل القناعة نفسها.

"إعلاء كلمة الله أو الجهاد" ستة فصول .

ففي الفصل الأول: يتناول مفهوم الجهاد بالتحليل في ضوء الكتاب والسنة. ويضع مفهوم "الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر" بعد البحث المستفيض فيهما، كلاً في موضعه اللائق به. ولا جرم فالحاجة ماسة إلى هذا الأمر. لأن

هذين المفهومين يفهمان أحيانا فهماً مختلفاً جدا. ولدى التطبيق يؤدى إلى مزلّة أقدام. فمثلا: القول بأن الجهاد هو الجهاد الأكبر لا غير. هؤلاء يفهمون الجهاد انه مجاهدة مع النفس الإنسانية، فتركوا جانبا الدعوة في العالم الخارجي وانسحبوا إلى زاويتهم منشغلين بذكر الله وحده. في حين غيرهم تبنوا الجهاد الأصغر وحده. فلم يروا الجهاد غير النضال مع الأعداء حتى بلغ بهم الأمر إلى إهمال العبادات المفروضة.

ولهذا لا يعدّ إسرافا في الكلام – إن شاء الله – مهما قيل حول مفهومي الجهادين الأصغر والأكبر، لأجل استيعابهما جيدا وتنفيذهما في الحياة الحاضرة وفق موازين خير القرون. وربما أعطي لهذا الموضوع مساحة أوسع في هذا الكتاب.

الفصل الثاني من الكتاب هو "وظائف الجهاد". فيبحث بحثا مستفيضا عن الجهات المختلفة للجهاد من الجانب الدنيوي. مثلا يبين أهمية الجهاد في "الجهاد منبع الحياة" ويقول:

"نحن مذ تركنا الجهاد نمت فينا الفرق والتخريب، وما نشاهده في الوقت الحاضر من التكتلات والتخريبات والفرق ليست إلاّ ثماراً من حنظل وزقوم نمت من تلك البذور الجهنمية التي نثرت في تلك الفترة. ولا خلاص من هذه الحالة المميتة إلاّ بالجهاد. فالجهاد للمؤمن أسمى غاية وأعلى مثل يمكنه أن يضحي بنفسه من أجله..."

في الفصل الثالث "علاقة الجهاد – المؤمن – الكون" يبين أن أحد أسباب تكليف المؤمن بالجهاد هو الحاكمية على الأرض المؤسسة على الحق والحرية والعدالة. وتأسيس هذه الحاكمية على الأرض مسؤولية تخص المؤمنين. أو بتعبير آخر أن هذه الحاكمية المدخرة في مخطط القدر الإلهي لا تتحقق إلا على أيدي المؤمنين. ولهذا فان كل مؤمن يعتقد أن هذا التكليف واحب ووظيفة عليه، أي يجب إعمال الفكر فيها والعمل على تنفيذها في الحياة الواقعية. ففي هذا الفصل تركيز على هذا المفهوم وربطه أيضا بعصر النبي ﷺ بإيراد مثالين منه وهما أنس بن النضر و البراء بن مالك رضي الله عنهما.

وفي فصل "ما يكسبه الجهاد" يذكر بجنب مكتسبات الجهاد المهالك والمخاطر الناجمة من عدم الإيفاء بهذه الوظيفة. وفيه كذلك – كما هو في الفصول الأخرى – إرشادات للمستشعرين بعظمة الدعوة إلى الله. ولاشك أن لهذه الإرشادات أهميتها القصوى ولا سيما إذا أخذت بنظر الاعتبار الفترة الزمنية التي قيلت فيها هذه الأقوال وطرحت هذه المباحث. تلك الفترة التي ضرب الإرهاب أطنابه في البلاد قبل سنة ١٩٨٠.

نعم في الوقت الذي كان الإرهاب يصول ويجول في البلاد، والبؤر الداخلية والخارجية تؤجج نار الفتنة، وعشرات من الشباب يقتلون يوميا، كان من العبث التحدث عن الأمان، أمان النفس والمال، وقد تعطلت التجارة حتى عجز التجار عن الذهاب إلى محالّهم باطمئنان، واضطروا إلى غلقها خوفاً من الأخطار.. إن سعى أستاذنا لإبلاغ هذه الإرشادات القيمة أو بث أنفاس

الآمال المشرقة في هذه الفترة بالذات من منصة الوعظ في جامع "بورنوا" (بإزمير) ما هو إلا تعبير عن النية الخالصة لإقرار الأمن والنظام والسكينة في هذه البلاد.

"إن أي نوع من أنواع الإرهاب والفوضى حالياً أجنبي المنشأ بلا شك، فالأجانب يريدون أن يحوّلوا هذا الوطن الشبيه بالجنة إلى جحيم لا يطاق. فلا أسهل من إرغام دولة خارت قواها نتيجة الإرهاب والفوضى. وهذا ما يصبو إليه الأجانب. فهم يريدون أن تتحول هذه البلاد إلى مستعمرة يستغلونها. والإرهابيون والفوضويون جميعهم ما هم إلاّ عملاء أولئك المستعمرين. ولكن لن يصلوا إلى مبتغاهم – بإذن الله – وسيمحق الله مكرهم. وهنا أمر مهم وهو أن الانشغال بالإرهابيين والفوضويين سيؤخرنا عن بلوغ ما نصبو إليه من هدف. أليس هذا ما يريده أعداؤنا بالدرجة الثانية؟ إذ هم يخشون أن يصلب عود المسلمين يوماً من الأيام فيصبح الإرهابيون كالحمر المستنفرة تفر من قسورة.

وهنا أمر لابد ألاّ يُنسى أبداً وهو: أن المسلم إذا اقتضى الأمر يكون مع قوى الجيش والأمن للدولة تجاه أي نوع من أنواع الاعتداءات الخارجية أو الداخلية. فهذا واجب عليه. ولا يمكن أن يتصور تركه لهذا الواجب. ويكفي أن تدعوه الدولة وتكلّفه بوظيفة كهذه. ولاشك أنه سيؤدي هذه الوظيفة المتممة لعمل الدولة، وبخلاف هذا فإن أية حركة فردية تؤدي حتماً إلى تهيئة إرهاب آخر. فعلى المؤمنين أن يكونوا على حيطة وحذر من هذا الأمر. إذ لا يملك الإرهاب والفوضى أي جانب شرعي، ولابد أن تُجتث جذورهما."

وكذا مما يلفت النظر ما بسطه أستاذنا من توضيح لحديث شريف قاله الرسول الكريم ﷺ ورواه أبو داود في سننه ينطوي على دروس عظيمة مفيدة لنا في الحاضر على الرغم من مرور أربعة عشر قرناً عليه:

(اذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَاَخَذْتُمْ اَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ[1] وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلاًّ لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ)[2] ....

الفصل الخامس للكتاب: "معوقات الجهاد" قد خصص لبعض نواحي الضعف فينا كما هو واضح من العنوان. فهنا يلفت النظر إلى بعض المسائل الموجودة أو من المحتمل وجودها في كل إنسان متخذا فطرة الإنسان أساسا. فيذكر بعض مواضع الزلات التي تخص الفطرة الإنسانية، تلك الزلات التي من المحقق أو من المحتمل وقوعها. فمثلا: حب الراحة والدعة. ولا مراء فان حب الراحة والدعة والانهماك في الحياة الدنيا فيروس خطر يقتل روح الجهاد.

وفي الحقيقة يمكن الإنسان أن يوجه هذه المشاعر في سبيل الدعوة المقدسة التي آمن بها وفي سبيل مرضاة الرب. وفي هذا يكون الظفر للدين أيضا. فيتناول الفصل هذين العائقين المهمين من زوايا نظر متنوعة ساردا أمثلة ونماذج من خير القرون لسبل تجاوزهما، منيرا آمالنا وشاداً لعزائمنا وإرادتنا.

أما الفصل الأخير "من عشاق الجهاد" فهو عرض لنماذج عملاقة ذاقوا لذة الجهاد وارتشفوا من رحيقه في كل لحظة من لحظات حياتهم، أولئك الصحابة الكرام، رموز فخرنا واعتزازنا وكرامتنا. وفي الحقيقة انه يمكن أن

---

١ بترك الصناعة

٢ أبو داود، البيوع ٥٦. المسند ٢/٤٢.

يذكر الصحابة كلهم في هذا الفصل إذ إن أولئك العظام قد أمضوا حياتهم كلها في مرضاة ربهم، إلا أن ذلك غير ممكن فعلا في مثل هذا الكتاب كما لا يخفى. ولهذا انتقي عدد من الصحابة الكرام وموقفهم من الجهاد بعد ذكر شيء من جهاد الرسول العظيم ﷺ.

إن كتاب "إعلاء كلمة الله أو الجهاد" كأمثاله من الكتب: "النور الخالد" و"القدر في ضوء الكتاب والسنة" لأستاذنا فتح الله كولن هو جمع لمواعظه التي ألقاها على منصة الوعظ قبل سنة ١٩٨٠. فهذا الكتاب هو جزء من سلسلة المواعظ التي ألقاها أستاذنا المحترم في جامع "بورنوا " التابعة لمدينة إزمير حينما كان واعظا هناك. فهذا الكتاب ليس إلا ما يخص الجهاد من تلك المواعظ. سُجلت هذه المواعظ على أجهزة التسجيل أولا ثم حولت إلى لغة الكتابة. وبعد إجراء التصحيح عليها من قبل الأستاذ نفسه نشرت في الصفحة الأكاديمية لجريدة "الزمان"، متسلسلة. وعندما تحول الأمر إلى كتاب وضعت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة بنصوصها العربية بعد تحقيق أصولها ومصادرها.

نترككم مع "إعلاء كلمة الله أو الجهاد" وفي الوقت نفسه نقدم جزيل شكرنا وامتناننا لأستاذنا الفاضل داعين المولى القدير أن يمنحه دوام الصحة والعافية ليتحفنا بأمثال هذه المؤلفات البديعة. وكذا نشكر كل من ساعد وساهم في إخراج الكتاب على صورته القشيبة هذه.

احمد قوروجان

١٩٩٦/٣/٢١-استانبول

المدخل

الجهاد بالمفهوم الذي يدركه الجميع هو النضال والكفاح في سبيل إعلاء كلمة الله. وقد وُجد هذا النضال منذ أن وُجد الإنسان نفسه على الأرض وسيمضي إلى أن يرث الله الأرضَ ومَنْ عليها، وما المخاصمة التي حدثت بين ابني آدم عليه السلام إلا أول مثال له.

الجهاد لغةً كلمة واسعة المعنى، تتسع باتساع الأحوال وعوارض الظروف لكل عصر، إذ قد يتحقق أحياناً بالتضحية بالغالي والنفيس من الأموال، ويبلغ أحياناً أخرى درجة الفداء بالنفس في هذه السبيل ومن هذه الزاوية فإن تعريفه بأنه "قتال الأعداء" ما هو إلاّ تحديد وتقليص لمعناه الواسع الشامل.

ولقد كسب الجهاد في عصرنا الحاضر خواصاً متميزة، حيث تحولت دنيانا إلى ما يشبه القرية العالمية، وتوسعت فيها وسائل الاتصال والنقل توسعاً هائلاً قد لا يتصوره خيالنا، وقد أثر توازن القوى العالمية – إلى حد ما – بمعناه ومفهومه.. لذا فلا شك أن شكل الجهاد سيكون أيضاً مختلفاً في هذا العصر.. ولا يعني هذا تغيّر معنى الجهاد ولا مضمونه.

وقد أضاف بديع الزمان سعيد النورسي بُعداً آخر جديداً لمصطلح الجهاد وذلك بقوله: "الظهور على المدنيين يكون بالإقناع". فإذا ما تصورنا سيطرة تيار الفلسفة الوضعية والمذهب العقلي حتى على العالم الإسلامي، فضلاً عن

العالم الغربي، فإن تبليغ الإسلام بلا شك إلى هؤلاء الناس سوف لا يكون ضمن ذلك المعنى الضيق للجهاد الذي ذكرناه آنفاً، أي "القتال"؛ إذ إن جهاد أولئك إنما يتحقق بإجراء مقارنة بين أسس النظم التي ارتضوها – الواحد تلو الآخر – مع أسس الإسلام. نعم إن جهادهم لا يتحقق إلاّ بهذا الأسلوب، أسلوب الإقناع.

والجهاد في الوقت نفسه – حتى الجهاد المادي – ليس فرضاً على الرجال دون النساء بل هو مسؤولية تقع على كل مؤمن مسلم حاز على شروط التكليف سواءً أكان رجلاً أم امرأة. فإذا ألقينا نظرة على الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة المتعلقة بالجهاد نشاهد هذه الحقيقة بوضوح، علماً أن نماذجها التطبيقية تملأ خير القرون وما أعقبته من قرون. وإذا ما أردنا مثالاً حياً لهذه الحقيقة من تاريخنا القريب، نجد المعارك التي دارت في أرجاء الأناضول وفي حرب جناق قلعة.. شاهدات على اشتراك الرجال والنساء معاً في الجهاد، بل حتى الشيوخ والأطفال حيث أُستنفر الجميع خفافاً وثقالاً في سبيل الله.

ولقد قُسّم الجهاد إلى قسمين في أحاديث الرسول الكريم ﷺ، وهما: الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر. وفي الحقيقة إن هذا التقسيم عبارة عن وجهين لحقيقة واحدة؛ إذ المقصود من الجهاد الأكبر هو عملية إعلاء الإنسان ورفعه إلى مستوى الإنسانية الحقة من حيث حياته القلبية والروحية. أي محاولة الإنسان طوعاً أو كرهاً جهاد نفسه على مدى حياته كلها، وفي كل جزء من

جزئياتها، حتى في الأكل والشرب وفي الحل والترحال... ومقاومتها عن كل ما لا يرضى عنه الله جل وعلا.

أما الجهاد الأصغر فهو جهاد الإنسان بماله ونفسه في سبيل الله حفاظاً على مقدساته، وإذا اقتضى الأمر، قتال الأعداء وجهاً بوجه.

فحسب هذا المفهوم الشامل للجهاد، فإن الجهاد الأكبر هو الطريق الذي يسلكه الإنسان طوال حياته، أينما كان وكيفما كان، وفي أي ظرف كان، بينما الجهاد الأصغر هو مزاولة الإنسان له إذا اقتضت الظروف، ويكون في أوقات معينة وبين حين وآخر.

وفي الحقيقة إن الشرط الأساس لتحقق الجهاد الأصغر له علاقة قوية أيضاً بما يحققه المجاهدون من الجهاد الأكبر في أنفسهم وما التزموا به برغبة وإصرار. نعم إنه لا يمكن أن يذوق النصر إنسان لا يعيش في نفسه تلك الحقائق التي ينافح ويذبّ عنها في كل ميدان يخوضه. لذا ينبغي لأبطال الجهاد أن يحققوا الجهاد في أنفسهم أولاً ويظلوا معها في جهاد مستديم حتى يكونوا أخرويين يسيحون في منازل الآخرة وهم ما زالوا في هذه الدنيا. ومن بعد ذلك عليهم أن يسعوا لإسعاف القلوب الظمأى إلى الحق والحقيقة.

ولو ألقينا نظرة فاحصة على صفحات التاريخ نجد أن الذين أوفوا التبليغ والإرشاد حق الوفاء، سلكوا جميعاً هذا المسلك. فابتداءً من الأنبياء عليهم السلام إلى الأصفياء والأولياء، أو بتعبير أوضح إبتداءً من سيدنا الرسول الكريم ﷺ إلى الإمام الرباني والشيخ الكيلاني ومولانا خالد وبديع الزمان

سعيد النورسي سلك جميعهم هذا المسلك. لذا أعطى الله ﷻ لكلامهم قوة وتأثيراً، بناء على إخلاصهم لله وصدقهم معه، حتى جعلهم يحيون – منذ عصورهم إلى الآن – بآثارهم الطيبة وذكرياتهم الجميلة، وشرح الله صدور المؤمنين لهم. وكأنه خلّدهم بسجل حسناتهم.

وللجهاد جهة أخرى تضم المجتمع بأكمله وتحتضنه، وهو جانب مهم جداً، إذ الإنسان جزء من المجتمع الذي يعيش فيه والمجتمع بدوره يتألف من الأفراد. فالمجتمع الذي يهدف كل فرد فيه إلى جهاد نفسه أولاً لدى أدائه فريضة الجهاد، لهو مجتمع متماسك مترابط، تنسد أبوابه أمام عوارض الزمن ونوائب الدهور، حيث أتم كل فرد فيه مهمته وأعدّ عدته المادية والمعنوية، فلا يمكن أن يصدّهم شيء عمّا يسيرون إليه.

ولا يخلو مجتمع أو أمة – في كل عصر من العصور – ممن هم بحاجة ماسة إلى الإرشاد والتبليغ. لذا فالمؤمنون الذين يعيشون مع هؤلاء الذين يجوبون في وديان الضلالة ويبحثون عن طريق للخلاص ويضيّعون حياتهم في سبيل العدم، مضطرون إلى أداء فريضة الجهاد مع هؤلاء الذين يشاركونهم العيش في سفينة الحياة الواحدة. فهذا فرض في أعناقهم من حيث كونهم بشراً. ومن جهة أخرى فهو فرض ألقاه الله عليهم وكتبه لهم. فكل إنسان مكلف بأداء هذه الفريضة ضمن إطار موضعه وموقعه وأحواله، وحسب إمكاناته وطاقته. وبخلافه يكون حسابه عسيراً يوم الحشر الأكبر.

إن أمماً كثيرة جداً لا يتحملون – على أية حال – دور الإسلام المسيطر في

العالم، والذي تحقق عبر التاريخ في عهد الأمويين والعباسيين وأخيراً العثمانيين، فهؤلاء يغمضون أعينهم عن الحقيقة، لذا من العبث توقع صدور فكر آخر منهم غير هذا النمط. وكما هو واضح أيضاً – في أيامنا الحاضرة – أن أعداء الإسلام ما زال عداؤهم على شدته وعنفه رغم مرور العصور، فتراهم يسلكون مسلكاً ذي وجهين محمّلين كل السلبيات على الإسلام. وينشر الغرب ما لا يعد ولا يحصى من الكتب ويسخّر الأقلام لأجل بث هذا الفكر الغربي إلى العالم أجمع وحمل الناس على التصديق به، متخذين في اعتبارهم أن القضية هي قضية الإسلام والنصرانية وعلى مدى العصور، ولم يغيروا سياستهم هذه، فالمسلمون في نظرهم وحوش ضارية، وسفاحون قتلة وجناة سفلة... وكم هو مؤلم أن في عالمنا نحن من المثقفين من يعتقد بهذه الفرية على الرغم من قلتهم.

هذا وقد تناولنا هذا المفهوم الشامل للجهاد في كتابنا "مفخرة الإنسانية محمد ﷺ" وبشكل مفصل مع سرد الأمثلة الكثيرة من عصر النبوة وإيراد الأجوبة على ما يبثه الغرب من اعتراضات على الجهاد. لذا لا نرى داعياً للتطرق إلى ذلك الموضوع مرة أخرى. نعم، لقد وضحنا في ذلك الكتاب: أن الأصل في الإسلام هو السلم وليس الحرب، وأفضنا في بيان أن الأسباب الموجبة للحرب هي الدفاع، والحدّ من الظلم، وفتح باب حرية الإرشاد والتبليغ. فمن شاء فليراجع ذلك الكتاب.

لم يبق مفهوم الجهاد في الإسلام منذ فجر التاريخ حتى يومنا الحاضر على

حالة نظرية بحتة، بل ظهر في كل عصر من العصور من يحوّله إلى عمل في الحياة، وعلى أفضل وجه. ومن الجدير بالذكر أن الذين تم على أيديهم النصر - نصراً تاماً أو غير تام - أصبحوا في أحيان أخرى مغلوبين على أمرهم. ولكن يتميز الصحابة الكرام - من بين ممثلي كل العصور - بأنهم دائماً في الذروة لا يرقى أحد إلى مقامهم الرفيع. فالمؤمنون الذين اتخذوا الصحابة الكرام قدوتهم - كما أمر به الرسول ﷺ - قد ساروا في الدرب الذي ساروا فيه. وسيحظون بالحشر معهم يوم القيامة بإذن الله.

ونحن في هذا الكتاب، حاولنا - كما سيتبين - سرد أجمل الأمثلة للجوانب العملية لمفهوم الجهاد في الإسلام.

أما حكم الجهاد - وفق القواعد الإسلامية - فهو يختلف حسب الظروف المحيطة. فإن كان اسم الله منسياً في موضع ما، وأوامره ونواهيه يضرب بها عرض الحائط، فالجهاد في ذلك الموضع فرض عين على كل مؤمن، بل هو أفضل الفرائض وأوجبها، ولاسيما إن كان ذلك المجتمع أسير ذلك المفهوم بمؤسساته ومنظماته. ولا يكون الجهاد فرض كفاية إلاّ إذا أدّت مؤسسات ومنظمات - في جبهة الإيمان - وظيفتها وبصورة منتظمة منسقة.

والآن يمكننا أن نمضي في فصول الكتاب بدءاً بمعنى الجهاد لغةً واصطلاحاً، ثم تعريفه، ومضمونه بجمل قصيرة موجزة.

حَولَ مَفهُوم الجِهَاد

الفصل الأول



١. ما الجهاد ؟

الجهاد: كلمة مشتقة من جذر: ج هـ د، وهي تعني بذل الوسع. والكلمة تحمل معنى آخر وهو بذل الإنسان كل ما في وسعه وطاقته وتحمّله المشاق في سبيل الوصول إلى هدف معلوم. وهذا التعريف أقرب إلى معنى الجهاد في معناه الشرعي.

إن مفهوم الجهاد قد كسب ميزة أخرى بظهور الإسلام، إذ صار عَلَماً على تحقيق إيصال الإنسان إلى الله ﷻ بإزالة العوائق بينه وبين الله تعالى. وحيثما يُذكر الجهاد في الوقت الحاضر يرد هذا المعنى على البال.

إن الجهاد في سبيل الله يجري في جبهتين اثنتين: الأولى، موجهة إلى الداخل. والأخرى موجهة إلى الخارج. ويمكننا أن نعرّف كلاً من الجهادين بالآتي: إن بذل الجهد إلى الداخل عبارة عن عملية إيصال الإنسان إلى ذاته وإلى ربه. أما الجهاد الآخر الموجه إلى الخارج فهو عملية إيصال الآخرين إلى ذواتهم وإلى ربهم. ويطلق على الأول "الجهاد الأكبر" وعلى الثاني "الجهاد الأصغر". حيث إن الإنسان بالأول يبلغ معرفة نفسه بعد اجتيازه العقبات بينه وبين نفسه حتى يبلغ معرفة الله ومحبة الله والذوق الروحاني. أما بالثاني فتتحقق إزالة الموانع بين الإنسان والإيمان بالله سواء بالنضال أو القتال، لإيصاله إلى الله تعالى ومن ثم التعرف عليه والعروج في معرفته.

والجهاد من زاوية أخرى هو غاية خلق الإنسان، فلا مهمة على الأرض أفضل منه. إذ لو كان الأمر خلاف هذا، لما كان الله سبحانه يرسل أنبياءه بتلك الوظيفة. فجميع الأنبياء والأصفياء منذ آدم عليهم السلام قد بلغوا – بصورة عامة – مرتبة الاصطفاء و الاختيار إمّا تحت ظلال السيوف أو بمحاسبة النفس.

ومن هنا فالبون شاسع بين القاعدين عن الجهاد بغير عذر وبين المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، لا يسدّه أي عمل كان غير الجهاد. والآية الكريمة الآتية توضح ذلك:

﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاً وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾(النساء: ٩٥).

والرسول الكريم ﷺ يبين أهمية الجهاد بالآتي:

(لَوَدِدْتُ أَنِّى أُقْتَلُ فِى سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ) [٣]

والله أعلم كم كان الرسول ﷺ يكرر: ثم أُقتل ثم أُحيا، إن لم يخش الإطالة في الكلام، إذ المقصود – من هذا التعبير– هو الاستشهاد في سبيل الله بغير حصر. والذي يدعو إلى التأمل، أن هذه الرغبة والأمنية تصدر من سيد المرسلين وإمام الأنبياء ﷺ الذي يقول أيضاً:

---

٣ البخاري، الإيمان، ٢٦". مسلم، الإمارة، ١٠٣. النسائي، الجهاد، ٣٠. ابن ماجه، الجهاد، ١

(رِبَاطُ يَومٍ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا وَمَوضِعُ سَوْطِ أحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا وَالرَّوْحَةُ يَروحُهَا العَبْدُ فِي سَبِيلِ اللهِ أو الغَدْوَةُ خَيرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا).[٤]

٤ البخاري، الجهاد، ٧٣. مسند أحمد بن حنبل ٥ /٣٣٩

٢. الجهاد أمر إلهي

إذا أردنا أن نوجز الجهاد كأمر إلهي عبر سيره التاريخي متمثلاً بسيرة الصحابة الكرام الذين خوطبوا به لأول مرة نقول:

إن الأحداث تبين أن الظروف المحيطة بالمسلمين في مكة المكرمة بلغت حداً لا يطاق، حتى نفدت طاقة بعضهم فأُمروا بالهجرة[٥]. بمعنى أن جهاد هؤلاء – في هذا الظرف – هو الهجرة. وفي الحقيقة أنه بعد مدة – كما سنرى – ستكون الهجرة هي الجهاد بعينه. وسيؤمر كل من أراد البيعة بالهجرة كشرط أولي.

ولقد هاجر المسلمون جميعهم إلى المدينة بعد هجرتي الحبشة[٦]. وبهذا أخذ الجهاد نمطاً آخر في العهد المدني، إذ أرسيت أسس الدولة الإسلامية.. فينبغي الجهاد إذن وفق الظروف ووقتها. ولا اختلاف في ماهية الجهاد وكيفيته، وإنما الأمر في كيفية تقويم الأمور حسب الأوضاع والظروف في حالها. والمهم الحفاظ على قابلية المناورة بجديتها وجدّتها، مما كان يتطلب السرعة أحياناً، والبطء والهدوء أخرى، بل التوقف أحياناً وغاية السرعة أخرى.. وكل ذلك يعدّ من جوانب الإستراتيجية للمسألة. ومن الطبيعي جداً اتخاذ أوضاع متباينة وفق اختلاف أحداث الزمان.

---

٥ إبن كثير، البداية والنهاية ٢ / ٦٤

٦ إبن كثير ٢ / ١٦٧

قبل الإذن بالجهاد لم يحرك المسلمون ساكناً ولم يردّوا بالمثل قط على الاعتداءات والتجاوزات على حقوقهم، أي انهم قاوموا مقاومة سلبية، بل حتى لم يفكروا بالمقابلة المادية، وكان الباغي دائماً جبهة الكفر، والمسلمون في وضع المظلومين والمهضومي الحقوق. واستمر الوضع على هذا المنوال مدة بعد الهجرة، وأخيراً أُذن بالجناح الآخر للجهاد ونزلت الآية الكريمة الآتية:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٣٩-٤٠).

فالذين مُنعوا من استعمال السيف يؤذن لهم الآن بالتسلح. فاندفعوا بحماس إلى إنفاذ الأمر إذ كانوا يترقبون بنفاد صبر الموضع الملائم لاستعمال هذا الإذن.

وبعد مدة أصبح الجهاد ليس إذناً فحسب بل أمراً إلهياً. وأصبح المسلمون بعد ذلك مضطرين إلى الجهاد المادي بسيوفهم، حتى انهم عندما خرجوا إلى بدر كانوا يترفلون بالفرح والسرور وكأنهم نودوا من الجنة. فهان عليهم ذهاب أموالهم وأنفسهم. نعم كانوا جميعاً ينتظرون الموت بلهفة وشوق عارم، ولهذا لم يتخلف أحدٌ منهم دُعي إلى الجهاد قط، إلاّ المنافقين الذين يبثون روح الفساد في صفوف المجاهدين فكثيراً ما تركوا الجبهة، وفارقوا الجماعة، وتركوا الرسول الكريم ﷺ هناك، وتباطأوا عن الجهاد في وقته أحياناً. فهؤلاء لم

يدركوا الصفاء في الداخل، ولم يغلبوا النفاق في عالم ضمائرهم ووجدانهم، حيث انهمكوا بحظوظهم الشخصية وانعزلوا عن رفقائهم المجاهدين في خط النار في ساحة الوغى. حقاً انهم ذوو أرواح سافلة وأُسَراء النفس والهوى.

أما المؤمنون بالله ورسوله ﷺ إيماناً باشر قلوبهم وأرواحهم، فلم يترك أحد منهم قط موضعه، أي لم يتراجع أحد بُلّغ بالجهاد عن مرضاة الله وأصبح من الواصلين إلى الله. فالذين قعدوا وتخلفوا هم الحائرون المترددون الذين لم يدركوا الحقيقة حق إدراكها ولم تباشر أرواحهم وضمائرهم.

نعم، إن المؤمن المجاهد بشر كأي بشر آخر، يمكن أن يكره الموت كما يذكّرنا القرآن بهذا الشعور: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٦). ولكن على الرغم من أن هذا مغروز في فطرة الإنسان فإن الصحب الكرام رضوان الله عليهم أجمعين انقادوا إلى أمر الرسول ﷺ دون قيد أو شرط وسلّموا أمرهم إليه بغير حرج في صدورهم. ولهذا تنزلت عليهم الألطاف الربانية تترى، لصفاء طاعتهم وقوة انقيادهم. وهكذا تعاقبت الإنتصارات الواحدة تلو الأخرى. فازدادت قوة المسلمين يوماً بعد يوم، وكانت بشارات النصر تنتشر بسرعة في القبائل. فمثلما يفرح المسلمون بها يحزن بها الكفار.

٣. أنواع الجهاد

آ. الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر

الجهاد الأصغر ليس هو شكل الجهاد الذي يؤدَّى في جبهة القتال فحسب، فهذا النمط من الفهم يقلّص أُفق الجهاد، حيث أن ميدان الجهاد واسع جداً يمتد من الشرق إلى الغرب، وعلى سعته وشموله قد يكون كلمة واحدة أو سكوتاً وصمتاً أو تبسماً وطلاقة وجه أو امتعاضاً ونفورا أو تركاً لمجلس أو مشاركة فيه.. وباختصار هو القيام بأي عمل من الأعمال لوجه الله، وتقويم الحب في الله والبغض لله في هذا السبيل... ومن هنا فان كل جهد يبذل لإصلاح المجتمع في أي ميدان كان من ميادين الحياة ولأي شريحة من شرائح المجتمع.. كل ذلك هو من مضمون الجهاد الإسلامي.

بمعنى أن ما يُؤَدَّى في ميدان العائلة والأقارب القريبين والبعيدين والجار ذي الجنب والصاحب بالجنب.. كل ذلك هو من الجهاد الأصغر. فهي كدوائر متداخلة واسعة سعة الأرض كلها.

نعم، إن الجهاد الأصغر في معنى من معانيه جهاد مادي. أما الجهاد الأكبر الذي يشكل الجانب المعنوي من الجهاد فهو جهاد الإنسان لنفسه وعالمه الداخلي. فمتى ما أُوفي حق هذين الجهادين معاً فقد تأسس التوازن المطلوب. وبخلافه، أي إذا ما نقص أحد هذين الجهادين اختلت الموازنة الموجودة في روح الجهاد.

فالمؤمن هو الإنسان الذي يجد هدف حياته ضمن هذه الموازنة في أدائه الجهاد، ويدرك أنه متى ما ترك الجهاد فُقدت الحياة. نعم، المؤمن كالشجرة المثمرة تحتفظ بحيويتها طالما تثمر، وإذا انقطعت عن الإثمار يبست وفنت.

إذا شئتم أمعنوا النظر في وجوه جميع المتشائمين، تجدوهم قد تركوا الجهاد، فقطع المولى الكريم عنهم فيوضاته لأنهم لا يبلّغون الحق والحقيقة إلى غيرهم. فأظلم عالمهم الداخلي وغدا قاسياً جاسياً. وانظروا إلى المجاهدين تجدوهم في نشوة وحبور دائمين وعالمهم الداخلي مملوء بالنور ومشاعرهم نابضة بالحيوية والرقة، لما يسعون إليه من تحويل الفرد الواحد إلى الألف، نعم إن كل جهاد يولّد لديهم جهاداً آخر، وكل خير يكون وسيلة لخير آخر، لذا فهم يجولون ويصولون في الخيرات. والآية الكريمة تفهّم هذه الحقيقة في وجداننا.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾(العنكبوت:٦٩)

ب. الطرق المؤدية إلى الله

الطرق المؤدية إلى الله مختلفة ومتنوعة وهي بعدد أنفاس المخلوقات. ولا ريب انه ﷻ يهدي الذين يجاهدون في سبيله إلى إحدى هذه الطرق أو إلى عدد منها، فيضع سبل الخير كلها أمامهم ويحفظهم عن طرق الشر.

إن طريق الله سبحانه هو الصراط المستقيم، فمن وجده فقد وجد الصراط السوي الوسط. نعم، فكما أن الصراط المستقيم هو الوسط بين الإفراط والتفريط في القوة الغضبية والعقلية والشهوية، كذلك هو الوسط في الجهاد

والعبادة، حيث يأخذ المؤمن الوسط دائماً. أي أن الله سبحانه يهدي الإنسان إلى صراطه السوي الوسط.

إن الجهاد الموجّه إلى الخارج مهما بلغت فيه التضحية والفداء فانه بمجموعه يعدّ ضمن الجهاد الأصغر، وكونه جهاداً أصغر إنما هو بالنسبة للجهاد الأكبر. وإلاّ فليس فيه جهة صغيرة قط. بل العكس هو الصحيح لأن ما يُكسبه من نتيجة، هي عظيمة للغاية، وكيف لا تكون عظيمة وهي ترشح المجاهد للدخول إلى الجنة، وإذا ما استشهد فله الحياة الكاملة في البرزخ. ولاشك أن المقصود هو نيل رضى الله في ختام الجهادَين. وكيف يكون صغيراً جهاد له هذه النتائج الجليلة؟

فالجهاد الأصغر إذن هو تنفيذ أوامر الدين عملياً وأداء ما كُلّف به الإنسان. أما الجهاد الأكبر فهو إعلان الحرب على جميع العقبات والعوائق الكامنة في النفس الإنسانية التي تعيقه عن الكمالات من حقد وحسد وأنانية وغرور وكبر وفخر وأمثالها من الأمور التي جبلت عليها النفس الأمارة بالسوء. فهذا الجهاد عسير وشاق ولهذا سمّي بالجهاد الأكبر.

إن دوران الحياة في فلك الأنانية خطر جسيم، والإنسان طالما هو في حومة الجهاد المادي لا يجد فرصة - في اغلب الأحيان - للإنصات إلى مطاليب نفسه، فيكون قد تجاوز هذه الخطورة، ولكن ما إن يُترَك الجهاد المادي حتى تشرئب النفس بعنقها وعندها يداهم الخطر حيث يعني هذا ضمور الحياة القلبية والروحية.

فالشخص المعرض لمثل هذا الموقف تحيط به الأفكار الفاسدة من جهاته الأربع وتتعرض حياته المعنوية إلى الشلل. وبهذا من الصعوبة بمكان أن يحافظ الإنسان على نفسه من دون القيام بالجهاد المادي. لذلك فان أصعب المصاعب هو ما أشار إليه الرسول ﷺ عند رجوعه من إحدى الغزوات حيث قال: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر"[٧].

والحديث الشريف يعني: أننا آمنا وشرُفنا بالجهاد والاشتراك في الغزوات وربما غنمنا بعض الغنائم.. وبعد ذلك ربما يسري إلى نفوسنا حب الدعة والراحة والارتخاء بل ربما يراود بعضنا الشعور بشيء من الإعجاب، فيتسرب من نفوسنا الأمارة – بطرق شتى – إلى أرواحنا ويفسدها. بمعنى أن مخاطر مهلكة كثيرة تنتظرنا بعد الجهاد المادي. فالنضال الذي سنخوضه بعد ذلك هو أصعب وأكثر جدية، فلا بد إذن من الاحتفاظ بحالة الحذر الدائم والاستعداد المستديم.

فالمخاطب بهذا الحديث الشريف، فضلاً عن الصحابة الكرام، هم الذين يأتون من بعدهم، ونحن منهم بالذات. ولهذا ينبغي أن نظل حذرين جداً في استعمال هذا الميزان، فإن كان الإنسان يوجه حركاته في الجهاد إلى الخارج وحده بعيداً عن مراقبة النفس فهذا يعني انه على شفا جرف من الخطر الجسيم.

---

٧ تاريخ بغداد، ١٣ / ٥٢٣ كشف الخفاء ١/٤٢٤ – ٤٢٥

ج . ما يخصه ﷺ

كان أناسي خير القرون، عصر النبوة، كالأُسد في الوغى، ولكن ما أن يرخى الليل سدوله حتى تراهم كالرهبان المتبتلين يقيمون الليل كله في عبادة وذكر وتسبيح إلى الفجر، وكأنهم كانوا فارغين في النهار وليسوا أولئك المجاهدين الذين اقتحموا المهالك، بل زهاداً منقطعين للعبادة وحدها..

نعم هكذا شاهدوا الأمر من رائدهم ومرشدهم ونبيهم الكريم ﷺ. ولنعرض هنا بضعة نماذج:

كان رسولنا الكريم ﷺ أنموذجاً ومثالاً للشجاعة فيروي سيدنا علي رضي الله عنه وهو البطل الشجاع ويقول: (كنا إذا احمرّ البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون منا أحد أدنى إلى العدو)[8]. ومثلاً في غزوة حنين (طفق يُركض بغلته قِبَلَ الكفار ويأخذ العباس بلجام بغلته يكفها أن لا تسرع وهو يقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب)[9]

فهذا المثال الرائع ﷺ والأنموذج الكامل للشجاعة والإقدام والبطولة، كان في عباداته كذلك في منتهى العبودية حتى يُسمع في صدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء[10] ويدفع مَن حوله إلى رقة القلب كلما سكب الدموع[11] وكان

---

٨ مجمع الروائد ٢/٨٧٤ المسند ١ / ٨٦؛ المستدرك ٢/١٥٥
٩ البخاري، الجهاد، ٥٢. مسلم، الجهاد، ٧٨–٨٠ . الترمذي، الجهاد، ١٥
١٠ مسند احمد بن حنبل، ٤/٢٥. النسائي، سهو، ١٨ إبن ماجه، المقدمة، ٣
١١ مسلم، الجنائز، ١٢. ابو داود، الجنائز، ٧٧

يصوم أياماً حتى يقال انه لا يفطر[١٢] بل كان يصوم حتى صوم الوصال.[١٣]

وكان يقيم الليل كله أحياناً حتى تورمت قدماه، فقالت له عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله أتصنع هذا، وقد غُفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فأجابها الرسول الكريم ﷺ يا عائشة أفلا أكون عبداً شكوراً؟![١٤]

وفي أثناء وجوده في غار ثور من دون مبالاة بالحيّات والهوام، وقد بلغ المشركون باب الغار، فجزع أبو بكر خشية أن يطّلع عليهم أحد. فقال له رسول الله ﷺ في منتهى الاطمئنان والسكينة: (يَا أبا بكر ما ظَنُّكَ باثنين اللهُ ثالثُهما.. لا تَحزَن إنّ اللهَ مَعَنا).[١٥]

فهذا الإنسان الذي لا يعرف الخوف قطعاً عندما يسمع القرآن يرق قلبه حتى تنهمر الدموع منه وتكاد تنقطع أنفاسه. (فعن ابن مسعود قال: قال النبي ﷺ: اقرأ عليّ. قلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أُنزل؟ قال: نعم، إني أحب أن أسمعه من غيري. فقرأت سورة النساء. حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا﴾ (النساء: ٤١) قال: حسبك الآن. فإذا عيناه تذرفان).[١٦]

انه إنسان القلب الحي والضمير اليقظ، وهو السابق الأول دوماً في الجهاد المادي و الجهاد المعنوي. فحينما يحث أمته على الاستغفار يكون هو في

---

١٢ مسند احمد بن حنبل، ٣/ ١٢٤
١٣ البخاري، التمني، ١٩. مسلم، الصيام، ٦٠
١٤ البخاري، التهجد، ٦. مسلم، المنافقون، ٧٩-٨١. الترمذي، الصلاة، ١٨٧
١٥ مسلم، فضائل الصحابة، ١. الترمذي، تفسير سورة(٩) ١. مسند احمد بن حنبل ١/ ٤
١٦ البخاري، التفسير،(النساء) ٩ المسند، ١/٤٣٣. البيهقي، ١٠ / ٢٣١

المقدمة ويقول: (والله إنّي لأستغفر ربّي وأتوب إليه في اليومِ أكثر من سبعين مرة)[١٧] ألا ما أعظم هذا الكلام في حثه على التأمل والتدبر.

إن الذي ظفر في الجهاد الأكبر يمكن أن يُنظر إلى أن جهاده الأصغر – على الأغلب – محقق الوقوع، بينما لم يُشاهد أحد خسر في الجهاد الأكبر وظفر في الجهاد الأصغر إلا نادراً جداً. فهؤلاء لا يبلغون النتيجة وإن أمكنهم إيصال الخدمة والعمل إلى مرحلة معينة.

عن ابن عمر: (يخاطب أمنا عائشة) رضي الله عنهما: أخبرينا بأعجب شئ رأيته من رسول الله ﷺ. فبكت وقالت: كلّ أمره كان عجباً، أتاني في ليلتي حتى مسّ جلده جلدي، ثم قال: ذريني أتعبد لربي (ألا ما ألطفه ﷺ يستأذن زوجته ليتعبّد ربه). قالت: فقلت: والله إني لأحب قُرْبَكَ وإني أحب أن تعبد لربك. فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء. ثم قام يصلي، فبكى حتى بلّ لحيته، ثم سجد فبكى حتى بلّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح. قالت: فقال: يا رسول الله ما يبكيك؟ وقد غفر الله لك ذنبك ما تقدم وما تأخر. فقال: ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أُنزل عليّ في هذه الليلة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ١٩٠) ثم قال: ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها).[١٨]

---

١٧ البخاري، الدعوات، ٣. الترمذي، تفسير سورة(محمد)١. إبن ماجه، الأدب، ٥٧. مسند احمد بن حنبل ٢/ ٢٨٢

١٨ إبن حبان، ٣٨٦/٢. تفسير القرطبي ، ٣١٠/٤. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٤٤١/١.

وأحياناً كـان الرسـول ﷺ يقـوم – دون أن يوقـظ أهلـه – ويتوضـأ ويقـف لعبادة ربـه. تقول أمنا عائشة أيضا رضي الله عنها سمعته يدعو: (اَللَّهُمَّ ا اَعُوذُ بِرِضَـاكَ مِـنْ سَـخَطِكَ وَبِمُعَافَـاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ وَاَعُوذُ بِكَ مِنْكَ (اي من قهرك بلطفك ومن جلالك بجمالك ومن جبروتك برحمانيتك ورحيميتك) لاَ اُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ. اَنْـتَ كَمَـا اَثْنَيْـتَ عَلَى نَفْسِكَ").[19] وهذا هو الرسول الكريم ﷺ وهذا هو جهاده الأكبر وهذه عظمته.

د . والذين اتبعوه

لقـد سـعى الصـحابة الكـرام رضـوان الله عليهـم أجمعين سـعياً حثيثاً لإتبـاع الرسـول الكـريم ﷺ خطـوة فخطـوة، وبذلوا وسعهـم ليعيشوا حياتهم كما كان الرسـول ﷺ يعيشـها، لأنهـم كانوا مدركين جيداً أن رفقته في الدار الآخرة إنما تكـون باتـباعه في هـذه الـدار إتباعاً تاماً. حـتى كـان منهـم من أمثال "ثوبان" الـذي خطـر بباله يومـاً مفارقـة الرسول ﷺ فانقطعت شهيته واستولى عليه الهم والغـم. وفي إحـدى الغـزوات لم يصـحب الرسـول ﷺ. وعـند عودتـه ﷺ كـان الجميع يتتابعون إلى زيارتـه، وكـان مـن هـؤلاء ثوبـان وقد نحل جسمه واصفر لونـه حـتى كـأن لم يـبق مـنه غـير الجلـد والعظـم. فسـأله الرسـول ﷺ الـرؤوف الرحيم: ما هذا يا ثوبان؟

قـال ثوبـان: لقد أهمني أمر فأوقعني فيما ترون، إذ قلت في نفسي: إنني لا أطيق فـراق رسـول الله ﷺ ثلاثـة أيـام، فكـيف أقـوى على فراقه في عـالم خـالد،

---

١٩ مسلم، الصلاة، ٢٢٢. أبو داود، الصلاة، ١٤٧. الترمذي، الدعوات، ٧٥. النسائي، الطهارة، ١١٩

حيث يكون هو في مقام رفيع وفي جنته الخاصة به، بينما أنا واحد من عامة الناس فلا يمكن أن ادخل جنته حتى لو دخلت الجنة. بمعنى إنني سأفارقه إلى الأبد.. ففكرت في هذا يا رسول الله فوقعت في هذه الحالة. فأجابه الرسول ﷺ هذا الجواب الشافي الخالد: (المرء مع من أحب).[20]

إن محبة المرء تكون بالتشبه بالمحبوب، وجعل حياته أنموذجاً يقتدى به في حياته. والصحابة الكرام كانوا حقاً على هذا الشعور تماماً.

مثال آخر: "عن جابر قال خرجنا مع رسول الله ﷺ يعني في غزوة ذات الرقاع فأصاب رجلٌ امرأة رجلٍ من المشركين فحلف أن لا انتهي حتى أهريق دما في أصحاب محمد فخرج يتبع أثر النبي ﷺ فنزل النبي ﷺ منزلا فقال مَن رجل يكلؤنا فانتدب رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار فقال كونا بفم الشعب قال فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب اضطجع، وقام الأنصاري يصلي وأتى الرجل فلما رأى شخصه عرف أنه ربيئة للقوم فرماه بسهم فوضعه فيه فنزعه حتى رماه بثلاثة اسهم ثم ركع وسجد ثم انتبه صاحبه فلما عرف أنهم قد نذروا به هرب ولما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدم قال سبحان الله ألا انبهتني أول ما رمى قال كنت في سورة أقرأها فلم أحب أن أقطعها".[21]

بمعنى أن الاطمئنان وسكينة القلب قد غمراه، وكأن القرآن ينزل عليه

---

٢٠ مسلم، البر، ١٦٥. الترمذي، الزهد، ٥٠. المسند، ٣٩٢/١.

٢١ المسند ١٩٠/٤؛ البيهقي، دلائل النبوة ٣٧٨/٣-٣٧٩. يوسف الكاندهلوي، حياة الصحابة ٤٨١/١-٤٨٢ أبو داود، الطهارة، ٧٨

وهو يتلوه في الصلاة، وكأن جبريل عليه السلام ينفثه في روعه، فينتشى بنشوة الوجد حتى لا يجد ألم السهم الذي انغرز في جسده.

وهذا هو موقف من جمع بين الجهادين، الأصغر والأكبر. بل هذا هو الوجه الحقيقي للجهاد.

قالت حفصة بنت عمر لأبيها: يا أبت إنه قد أوسع الله الرزق وفتح عليك الأرض وأكثر من الخير فلو طعمت طعاما ألين من طعامك ولبست لباسا ألين من لباسك فقال: سأخاصمك إلى نفسك أما تذكرين ما كان رسول الله ﷺ يلقى من شدة العيش. قال فما زال يذكرها حتى أبكاها ثم قال إني قد قلت لك إني والله لئن استطعت لأشاركنهما في عيشهما الشديد لعلي ألقي معهما عيشهما الرخي"[22] هذا هو سبيل رسول الله ﷺ والصحب الكرام رضوان الله عليهم أجمعين. إنهم في حضور دائم مع الله واتصال مستمر وثيق معه. فكانت عباداتهم وأذكارهم من الكثرة والعمق بحيث من يشاهدهم يحسب أن ليس لهم شغل يشغلهم غير العبادة والذكر، هذا مع كمال إيفائهم لأمورهم الدنيوية ومشاغلها.

نعم، انهم يمثلون خلاصة الإخلاص ولبّه، إذ ما كانوا يعملون عملاً إلاّ وفق مرضاة الله سبحانه، فكان كل عملهم في مراقبة عميقة دائمة لله. فها أمامنا مثال الإخلاص سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ. انه قطع الخطبة يوماً دون سبب. وقال: كنت يا عمر راعياً لإبل أبيك الخطاب.. ونزل من المنبر.

---

٢٢ أبو نعيم، حلية الأولياء ١/٤٨-٤٩. ابن سعد، الطبقات الكبرى ٣/٢٧٧-٢٧٨

وعندما سئل: ما الذي دفعك إلى هذا القول؟ أجاب: خطر ببالي أنني خليفة!

عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما: رأيت عمر بن الخطاب ﷺ على عاتقه قربة ماء فقلت: يا أمير المؤمنين لا ينبغي لك هذا. فقال: أتاني الوفود سامعين مطيعين فدخلت نفسي نخوة فأردت أن أكسرها"[٢٣].

وقطع عمر بن عبد العزيز الخطبة على المنبر إذ خاف على نفسه العجب. وكتب مرة كتابا فخاف فيه العجب فمزقه ويقول: اللهم أني أعوذ بك من شر نفسي.

إن جهاد هؤلاء الأطهار الذين بلغوا الكمال روحاً وتكاملوا بها، لن يبقى بلا ثمر، لأنه في سبيل الله. وعلى هذا فالذين يتباهون ويتفاخرون بأعمالهم باسم الجهاد هنا وهناك، ولم يصلحوا شؤونهم الداخلية ولم ينجوا من الرياء والعجب والغرور والكبر، أعمالهم تخريب اكثر من أن تكون تعميراً. بل حتى لو بلغوا مبلغاً معيناً في مرحلة ما فلن يبلغوا الغاية والنتيجة قطعاً.

هـ . جلب العناية الإلهية ودعوتها

الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي تجمع الجهادين معاً كثيرة جداً. ومما لاشك فيه أن سورة النصر في مقدمة هذه الآيات:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ (سورة النصر)

---

٢٣ مدارج السالكين لابن القيم ٢/٣٣٠

فهذه السورة تبشر بمجيء نصر الله وفتحه حينما يدخل الناس أفواجاً في دين الله. وهكذا كان. فحينما أزيلت العوائق أمام الجهاد الأصغر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتبليغ الحق، ودخل الناس في الإسلام أفواجاً، ففي هذه المرحلة يكون الأمر الإلهي هو:

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ لأن جميع هذه الأمور ما هي إلاّ إحسان ونعمة إلهية بحتة. إذ هو الذي خلقها كلها.

فعلى الإنسان الذي ظهر على الأعداء في الخارج، أن يظهر على نفسه أيضا في عالمه الداخلي، ليتم جهاده ويكتمل.

وفي ضوء هذا تقول أمنا عائشة رضي الله عنها: كان الرسول ﷺ بعد نزول هذه السورة يردد باستمرار: (سُبحان الله وبحَمْده أستغفرُ اللّهَ وأتوبُ إليه سُبحانكَ اللّهم أستغفرك وأتوب إليك)[24].

وفي حديث آخر يجمع الرسول ﷺ هذين الجهادَين معاً فيقول:

(عَيْنَانِ لاَ تَمَسُّهُمَا النَّارُ عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللهِ)[25]

نعم، إن جهاد من يسهر على الحدود والثغور ويرابط في ميدان الحرب، وفي أخطر المواقع جهاد مادي. فالذي يؤدي هذا الجهاد لا تمس النار عينه.

وعين أخرى تحقق الجهاد المعنوي الأكبر، عين تبكي من خشية الله.

---

٢٤ مسلم، الصلاة، ٢٢٠. المسند، ٦/٣٤

٢٥ الترمذي، فضائل الجهاد، ١٢.

فهاتان العينان – في هذه البشرى النبوية – سواء في عدم مسهما النار.

نعم ، محال لدى الرحمة الإلهية ووعده القاطع أن تمس النار هاتين العينين كمحالية عودة اللبن إلى الضرع ! و واقع من يجاهد في سبيل الله أشعثَ أغبرَ لا يختلف عن هذا، فقد بشّر الرسول الكريم ﷺ في أحاديث كثيرة أن النار وهذا الغبار والتراب في سبيل الله لا يجتمعان.

نعم لا تمس النار تلك العيون التي تذرف الدموع ساخنة من خشية الله، وتحرس وتراقب مواقع دخول العدو مرابطة في الثغور والمواقع الخطرة. فالذي ينذر نفسه لهذه الأمور ويجابه المهالك التي تحدق بالبلاد ويتصدى لها بإنشاء مؤسسات يتربى فيها أبناء أمته بمستوى يليق بالإنسان، ويتجافى عن حظوظ نفسه وأذواقها لأجل الآخرين ويستطيب راحة الآخرين وعيشهم الهنيء.. فهؤلاء لا تمس عيونهم النار. وعلى هذا فالذين يرون الجهاد جدالاً ونقاشاً هنا وهناك إن لم يراقبوا أعمالهم و يقوموها بموازين الجهاد الذي ينادون به، فانهم لا يعملون إلاّ لقتل الوقت وخداع أنفسهم. فالذين لم يحسموا الأمر مع نفوسهم ولم يلجموها بالمراقبة الدائمة ولم يرغموا أنف الرياء ولم يسحقوا روح الافتخار ولم يجعلوه تحت أقدامهم، ولم يقلعوا من أرواحهم الكبر على الآخرين والتظاهر أمامهم.. فأعمالهم لا تنفع شيئاً سوى كونها مصدراً لإحداث القلاقل والاضطرابات.

ومن جهة أخرى فالذين ينسحبون من الميدان ويقبعون في زاويتهم آخذين نصيبهم من الجهاد من جهته المعنوية وحدها ويقولون: لا يصح الانشغال مع

الغير قبل جهاد النفس.. فهؤلاء الذين يرون إحراز درجات معنوية لأنفسهم وبلوغ المراتب الرفيعة التي يرونها فوق كل أمر، ويعزفون عن إرشاد الناس، هم بلا شك على خطأ واضح حيث يخلطون الإسلام بالروحانية الصوفية(ميستيزم).

إن الفكر المهيمن على القائلين بإصلاح أنفسهم قبل دعوة الآخرين مكتفين بالجانب المعنوي من الجهاد فحسب هو: أن كل إنسان يحاسب بمفرده "فكل شاة تناط برجليها"، كما هو المثل العامي المشهور. وإن من لم يصلح نفسه أعجز في إصلاح غيره. لذا على المرء أن يلتفت إلى إصلاح نفسه أولاً.

فنقول لمن يستغرقه هذا الفكر: اعلم أن الإنسان حينما يظن أنه أنقذ نفسه فقد وقع من فوره في أخطر دوامة، فمن يطيق أن يدعي خلاص نفسه والقرآن الكريم يقول: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر: ٩٩).

نعم إن الإنسان مكلف بالعبادة حتى الرمق الأخير، فلا يستطيع أن يحجم عن أي عمل كان في معنى العبودية لله، حتى يُرفع الستار ويُدعى إلى العالم الآخر. فكيف يمكن لمن تستمر عليه مهمة التكليف هكذا، أن يقول: أكملت إنقاذ نفسي. بمعنى أن جهاد الإنسان مع نفسه وسعيه لتطهيرها وتزكيتها من الأخلاق الرذيلة، ومحاولته إصلاحها وتقويمها يدوم مادامت فيه الحياة.

نحن إذن مضطرون إلى العيش الدائم بين الخوف والرجاء، فكما لا يخطر ببال المؤمن الاطمئنان إلى النتيجة فليس من صفاته القنوط أيضا، إلاّ أن الخوف

لابد أن يكون أرجح في ميزانه في الدنيا. تأملوا في حال سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ وهو في أنفاسه الأخيرة فيضطرب خشية الحساب، ولم يخفف قلقه واضطرابه هذا إلاّ بشارة ابن عباس له إذ قال: أشهد لك يوم القيامة بأنك صالح.[26] نعم ألم يذكّرنا القرآن الكريم بـ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (الرحمن: ٤٦)؟

و . فهم السلف

لم يفهم الجهاد على وجه واحد من هذين الوجهين أحد من المرشدين الحقيقيين العظماء الذين ربّاهم الإسلام. فلم يتخلفوا عن نشر الحق والصدع به قط حتى لو كانوا وراء قضبان السجون. وكذلك لم يرخوا عنان العلاقة القوية مع ربهم ولم يهملوا قطعاً دائرة القلب مهما بلغ ميدان عملهم من التوسع. بل أصبح كل ما أفيض عليهم في هذا المجال جزءاً من تكامل زلال المعرفة والعرفان عندهم فعاشوا دوماً بشعور الإحسان الإلهي، مستحضرين مراقبة الله لهم كل آن ومتقربين إليه سبحانه بعملهم هذا. إلى أن صار الرب جل وعلا بصرهم الذي يبصرون به ويدهم التي يبطشون بها.. فبارك الله فيهم حتى صار الفرد منهم ألوفاً.

ز . ما يجب على إنساننا اليوم

إن إنساننا في الوقت الحاضر، إن كان يريد أن يجاهد في سبيل الله حق

---

٢٦ ابن سعد، الطبقات ٣٥٢/٣

جهاده وبما يرضيه - وهذا ما يجب عليه - عليه أن يراقب نفسه مراقبة جادة ويحاسب رغباته حساباً عسيراً، في الوقت الذي يزاول نشر الحق وتبليغ الحقيقة للآخرين. وإلاّ فهناك احتمال قوي أن يخادع نفسه، وعند ذلك لا ينتفع بعمله ولا ينتفع به غيره .

المجاهد يحمل من الإخلاص ما يجعله يختار الله على كل ما سواه، فهو إنسان خالص مخلص، ذو قلب حيّ.. وبذلك يكون الجهاد مثمراً وباقياً. فهو بدلاً من أن يملأ عقول الآخرين بأكوام من الغث والسمين من المعلومات، عليه أن يقرّ في قلوبهم وعقولهم الإخلاص وحسن النية وروح المحاسبة الداخلية والشعور بأن يكونوا رجال القلب.

نعم ، الجهاد موازنة بين فتح الداخل والخارج. ففيه بلوغ الكمال ودفع الآخرين إليه. فبلوغ الإنسان ذاته جهاد أكبر ودفعه الآخرين إلى الكمال جهاد أصغر. فإذا ما افترق أحدهما عن الآخر ينتفي معنى الجهاد عن عمله. فيتولد من أحدهما الذل والمسكنة ومن الآخر العنف والإرهاب. و نحن ننتظر ولادة روح محمدي، وهذا لا يمكن إلاّ باتباع الرسول ﷺ في هذا الأمر كما في كل أمر.

فما أسعد أولئك الذين يبحثون عن وسائل لإنقاذ غيرهم مثلما يبحثون عنها لإنقاذ أنفسهم. وما اسعد الذين لا ينسون أنفسهم في خضم العمل لإنقاذ غيرهم.

الجهاد ماض إلى يوم القيامة. لأنه مهما بذلنا من جهد في سبيل إنقاذ الإنسانية فلابد أن يظل كفار يصرّون على كفرهم. وهذا يعني استمرار الجهاد، إذ نحن مكلّفون بتعريف ربنا الجليل إلى الناس كافة. فإن اعترض أحد سبيلنا في التبليغ، وأراد أن يصرفنا عن مهمتنا وهي مهمة خالصة نقية حملناها، فلا مفر من اللجوء إلى الجهاد المادي. نحن مضطرون إلى الانتصار و الظهور في كلا الجهادَين المادي والمعنوي، إذ بخلافه نفقد حق الحياة ومتطلباتها كإنسان. فلقد ضحى أجدادنا في فترة من الزمن بحياتهم لأجل هذا، إذ لما أراد "الصليب" أن يعترض هذا المفهوم الإنساني الذي يحملونه، وجدوا إزالة المانع في إعداد القوة. وهذا هو معنى الحروب التي خاضها أجدادنا وهذا هو مغزاها.

وحاشا أن تكون لهم غاية سوى التبليغ، وحاشا أن يكون الدافع عندهم حب الاستيلاء والسيطرة على الأماكن، بل كانوا عشاق "إعلاء كلمة الله" وما كان يهمهم شئ إلاّ إبلاغ حقيقة "لا إله إلاّ الله" إلى أرجاء الأرض كافة، حتى لا تبقى عليها نقطة مظلمة لم تتنور بنور الإيمان. فكأنهم كانوا مؤذني أزمانهم على منائر، رافعين صوتهم بالأذان معلنين الإيمان إلى أرجاء الأرض كافة. نعم إن كلمة "لا إله إلاّ الله" هي التي رنّت في الآفاق من منائر هذه الأمة بلسان الجيش وقرقعة الأسلحة، فلم يك فينا يوماً حب الاستيلاء والسيطرة على الأقوام. فالأذان الذي رفعه السلطان محمد الفاتح وأمثاله من منائر الدولة العثمانية قد بلغت أصداؤه أقصى الظلمات في العالم فنوّرها بـ"لا إله إلاّ الله" حتى إننا نشاهد من لبّى هذا النداء وشهد هذا الأذان الرفيع في

ميدان واسع يمتد من غابات بلغراد إلى سفوح هملايا، بل نسمع صداه حتى من موجات المحيطات المتلاطمة.

نعم، الجهاد ماض إلى يوم القيامة، لأجل إنارة كل زاوية مظلمة، وحمل نور اسم رسول الله ﷺ إلى كل بقعة، وإضاءة كل ناحية في العالم بنور القرآن المبين، والمؤمنون سيمضون بالجهاد المادي أيضا ليحققوا دورهم في إقامة التوازن بين الأمم والدول ليحظوا باسم "الأمة الوسط".

ونحن كأمة مكلفون بإحراز هذا الموقع الرفيع.. وهدفنا هو هذا لا غير.. لأن الله ﷻ يقول: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (البقرة: ١٤٣).

هذا يعني: إننا جعلناكم وسطاً لما يحدث بين الدول، وعنصر توازن بين الأمم وشاهداً للاستقامة.. فهو سبحانه يدعونا لنرتقي قمة هملايا ونبلغ ذروة "حراء" لنشارك مشاركة شعورية بما كان الرسول ﷺ يستشعر به، فيدعونا إلى التكامل بذاتنا وفطرتنا الموهوبة لنا. ونحن بدورنا إما أن نعقد العزم ونجدده لنرتقي تلك القمة، أو نتقاعس راضين بما نحن فيه فنتردى إلى أسفل سافلين وننسحق تحت الأقدام.

وظائف الجهَاد

١. الجهاد مهمة الأنبياء والرسل

إن من يجاهد في سبيل الله ويبتغي مرضاة ربه بامتثال دعوته، لا يُنظر إليه نظرة إنسان اعتيادي في مستوى بقية الناس، ذلك لأنه اتخذ الغاية التي بُعث بها الأنبياء والرسل الكرام – صلوات الله عليهم – هدفاً له. ولنمثل هذا بمثال للتوضيح:

من المعلوم أن لكل إنسان مسلكاً معيناً ووظيفة تخصه، ولهذه الوظيفة خصائصها، فمثلاً الحلاق، أو النجار، أو السرّاج أو صاحب مهنة أخرى، كل منهم له هدفه المعين. ويقدّر وضعه الحالي وفق ذلك الهدف. ومن جانب آخر فان كل مهنة تحرز الأهمية بنسبة بعدها وقربها من ذلك الهدف المعيّن لها. فأهمية مهنة الحلاقة – والحلاق أيضاً من جهة – تقاس بالنسبة لذلك الهدف وقس عليها المهن الأخرى، فالنائب في البرلمان مثلاً، أو رئيس الوزراء أو رئيس الجمهورية – إن عدّت الرئاسة مهنة ووظيفة – يجري المقياس نفسه على هذه الوظائف كلها ، أي تُحرز الأهمية وفق الهدف المعين.

إن مهمة النبوة أقدس وظيفة عهد بها إلى أشخاص أخيار مصطفين من بين الناس. أما وظيفتهم فهي التعريف بالله، وبالدين الذي تلقوه منه سبحانه. فهم بهذا التبليغ يعلّمون الإنسان الذي بدأ من نطفة مستقذرة وينتهي إلى جثة نتنة، طرق البلوغ إلى عالم الخلود، إلى عالم الأبدية والاستقرار في مواطن

السعادة والرفعة الدائمة. وبذلك تطمئن قلوبهم المحتاجة والمشتاقة إلى البقاء والأبدية، بالإيمان بالبقاء والدنو إلى الأبدية.

إن الهدف المقدّر في مهمة النبوة هو الإيمان بالله ومعرفته تعالى وإبلاغ الإنسان طريق الخلود بتلك المعرفة والإيمان. ووصوله إلى الله سبحانه بعد عبوره من هذه الدنيا. وإراءته جلوات البقاء والخلود في هذا العالم الفاني، واستشعاره بألوان الوجود في الفناء. حتى يبلغ بأفكاره مبلغ الهالة المشعة بالأبدية ولا يرى نفسه إلاّ تحت ظل قوس نصر الخلود العظيم.

فالذين يفجرون هذه الماهية المغروزة في فطرة الإنسان المرشح للخلود، هم الأنبياء والرسل الكرام الذين قلدوا وظيفة النبوة.

فالنبوة بهذا هي أقدس وأنزه مهمة عند الله، حتى أنه سبحانه وتعالى وجّه الأنظار بعد ألوهيته جل جلاله إليها. هذا وان أقدس وظيفة في هذه المهمة المقدسة هي الجهاد. إذ هو الواسطة والوسيلة التي توصل إلى النقطة النهائية المهمة المقدسة، فهي إذن مقدسة ومنزهة مثلها.

ومما يفيد قدسية هذه المهمة الآية الكريمة:

﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ١١١).

بمعنى أن الذين يبيعون ما لديهم من وجود مادي من نفس ومال سيفوزون مقابلها بالجنة وسيحظون برضى الله جل وعلا.

والقرآن الكريم باستعماله كلمة البيع والشراء يسمو بمرتبة الإنسان إلى مرتبة المخاطب لربه الجليل الذي يعقد معه سبحانه المواثيق والعهود. والرسول ﷺ يذكر في حديث شريف له: (كُلُّ الْمَيِّتِ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إلاَّ الْمُرَابِطَ، فَإِنَّهُ يَنْمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَيُؤَمَّنُ مِنْ فَتَّانِ الْقَبْرِ).[27]

---

٢٧ أبو داود، الجهاد، ١٦. المسند، ٦/٢٠.

٢. الجهاد شهادة للحق

إن أحد جوانب الجهاد هو أداء مهمة الشهادة للحق، إذ كما يسمع – في المحاكم – إلى أقوال الشهود، إحقاقاً للحق، ومن ثم يُقضَى وفق شهاداتهم. كذلك المجاهدون في أثناء تحاكمهم مع جبهة الكفر والإنكار على الأرض، يشهدون لله بأعلى صوتهم قائلين "الله موجود" بل يُسمعون الأرض والسماء هتافهم. والآية الكريمة تبين لنا هذه الحقيقة بجلاء:

﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لآ إِلَهَ إِلاّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَآئِمًا بِالْقِسْطِ لآ إِلَهَ إِلاّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: ١٨).

نعم، إن ذكر هذه الشهادات الثلاث في موضع واحد جنباً إلى جنب، ينطوي على مغزى عميق.

١) إن الله ﷻ يشهد على وجوده بذاته جل وعلا. والكاملون الذين بلغوا الحقيقة، يستشعرون بهذه الشهادة في وجدانهم شعوراً عميقاً وراسخاً بما لا يمكن توضيحها بالكتب.

٢) والملائكة أيضا شهود على وجود الله ﷻ، فالملائكة المخلوقون من نور خالص، فطرتهم صافية نقية لا تشوبها شائبة قط، حتى عجز الشيطان أن يُدخل فيهم الكفر والضلال. ففطرتهم الأصلية لم تتغير قط. فهم كالمرايا

المجلوة في الصفاء والنقاء. فتشاهد في هذه الماهيات النزيهة أيضا تجلياته ﷻ وتَسْتَشْعِرُهَا وتُقِرُّ بها.

٣) وأولو العلم أيضا يشهدون بوجود الله سبحانه.

فهذه الشهادات الثلاث كافية ووافية لإثبات وجود الله سبحانه حتى لو أنكرت الدنيا قاطبة وجوده تعالى .

نعم، انه كذلك، إذ نشعر بهذه الحقيقة بجلائها وعظمتها في وجداننا حتى لا نجد داعياً إلى أي دليل آخر. فهذه الشهادة كافية ووافية كذلك لسكنة الملأ الأعلى.

والذين صمّوا آذانهم وأعموا أبصارهم ولم يعودوا يدركون الآيات المبثوثة في الكون ولا يسمعون أصواتها الندية ويعجزون عن رؤية آثاره ﷻ في ملامح صنعته الباهرة في آفاق الأرض كافة، تكفيهم هذه الشهادة، شهادة أهل العلم.

والمجاهدون شهود الله، وسيهتفون بأصدائهم العذبة في المحاكم التي تنصب للمنكرين قائلين: إننا شهداء لله.

وفي الحقيقة أن الأنبياء الكرام ما أرسلوا إلا لأداء هذه الشهادة على أفضل وجه والقرآن الكريم يوضح هذه الحقيقة بالآية الكريمة:

﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً ۞ لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً ۞﴾ (النساء: ١٦٥-١٦٦).

وفي كل أمة من الأمم نبي كريم ينير لهم الطريق. أما خاتم النبيين والرسل

سيد الكونين والثقلين فقد أرسل إلى الإنسانية كافة لينير لها الطريق. ويذكّرنا القرآن الكريم بهذه الحقيقة بالآية الكريمة:

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ (الأحزاب: ٤٥) وكلمة النبي في خطاب "يا أيها النبي" المعرّفة بـ"الـ" التعريف تعني نبياً معروفاً. أي أن نبوة هذا النبي معروفة وواضحة من كل جهة تنظر إليها. بل إن نبوته معروفة ومشهودة حتى عند الجمادات بسلامها عليه[٢٨]، و النباتات [٢٩] والحيوانات[٣٠] بانقيادها وخضوعها لأوامره، فهو نبي كريم معروف عند المخلوقات قاطبة، مما لا يمكن إنكار نبوته قط. فلقد لانت أقسى القلوب وأغلظها أمامه صلى الله عليه وسلم. أفلا يثبت هذا انه النبي المعروف؟!

أما كلمة "أرسلناك" في الآية الكريمة المذكورة، فهي بصيغة المخاطب "ك" وفيها إيماء وتلميح ورحمة إلى من هو رحمة للعالمين.

أما "شاهداً" فيعني: انه سبحانه يقول لنبيه: إننا أرسلناك شاهداً للإنسانية، لتبلّغ الناس كافة بأنني موجود فتعرّفهم بي، وتكون شاهدي عليهم ولو كذّبك العالم أجمع وأنكروا عليك. فأنت تعلن وتبلغ وجودي. فأنت شاهد في هذه المنزلة. ثم أن جماعة الشهود يخلفونك ويسيرون وراءك، فهم شهداء على الإنسانية وأنت شاهد عليهم، تشهد لشهادتهم، فشهادة أمته ﷺ هذه سترفع مسؤوليات بعض الأنبياء في يوم الحشر الأعظم، كما ورد ذلك في الحديث

---

٢٨ انظر : مسلم، فضائل، ١

٢٩ انظر إبن ماجه، الفتن، ٢٣. المسند، ٣ / ١١٣

٣٠ انظر : المسند ٤/١٧٠-١٧١. مجمع الزوائد ٩ / ٤

الشريف: "قال رسول الله ﷺ: " يُدعى نوح عليه السلام يوم القيامة فيقال له: هل بلّغت؟ فيقول : نعم، فيُدعى قومه فيُقال لهم: هل بلّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، أو ما أتانا من أحد. قال: فيُقال لنوح: مَن يشهد لك ؟ فيقول: محمد وأمته، قال فذلك قوله : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال : الوسط العدل، قال: فيدعون فيشهدون له بالبلاغ ، ثم أشهد عليكم).[31]

---

٣١ البخاري، الإعتصام ١٩، المسند ٣/٣٢. ابن ماجه، الزهد، ٣٤.

٣. الجهاد منبع الحياة

الجهاد منبع يتدفق بالحياة، فيجعل المسلمين في حيوية مستديمة. فما من أمة حُرمت أفرادها من الجهاد المادي والمعنوي، إلاّ ظهرت فيهم المشاحنات والمخاصمات الداخلية ففسدت الأمة من داخلها وتعفنت. والعثمانيون يمثلون آخر مثال حي لهذه الحقيقة. ومما لا ريب فيه أن القدر قد حكم على العثمانيين – كما حكم على غيرهم من الأمم – بالنخر والفساد والعطب. ولا جرم أن لهذا الأمر أسبابه الخاصة به. إذ لو انغمس حكام في حياة الشهوات والرذائل في القصور وأهملوا إعلاء كلمة الله، ودبّت رخاوتهم وإهمالهم هذا في صفوف الجيش، فان الدولة تفقد موقعها المرموق بين الدول فضلاً عن البؤس والشقاء الأبدي الذي يلحق بالأمة مع المخاصمات والمشاحنات الداخلية التي لانهاية لها. نعم إن هذه المخاصمات الداخلية هي التي أدت إلى انهيار دولة عظيمة علية. وأنهت وجودها من على الأرض.

ونحن مذ تركنا الجهاد نمت فينا الفرق والتخريب، وما نشاهده في الوقت الحاضر من التكتلات والتخريبات والفرق ليست إلاّ ثماراً من حنظل وزقوم نمت من تلك البذور الجهنمية التي نثرت في تلك الفترة. ولا خلاص من هذه الحالة المميتة إلا بالجهاد. فالجهاد للمؤمن أسمى غاية وأعلى مثل يمكنه أن

يضحى له بنفسه. إذ يحظى المؤمن بالتطهر الكامل بالانغماس في عرقه والتوضؤ بدمه وما ذلك إلا بالجهاد.

ومن الذين ذاقوا طعم هذه اللذة الرفيعة هو حرام بن ملحان في أثناء سقوطه إلى الأرض بعدما أصيب بسهم في صدره وهو يقول: فزتُ وربِّ الكعبة.[٣٢] فلو أجرينا مقارنة بين ما غنمه "حرام بن ملحان" وما ذاق في سبيل الله من ذوق رفيع، ندرك عندئذ مدى فوزه حقاً. نعم الجهاد أربح تجارة. والله ﷻ يدعونا إلى هذه التجارة الرابحة بقوله:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞﴾ (الصف: ١٠-١١).

بمعنى أن الله سبحانه يقول: إنني أدعوكم أيها المؤمنون إلى أربح تجارة وأعظمها حيث تفوزون بحياة خالدة عزيزة سعيدة في الجنة فضلاً عن نجاتكم من نار جهنم.

نعم، الجهاد الذي هو إنارة كل موضع في الأرض وإبلاغ أنوار اسم سيد المرسلين إلى أشد الأماكن ظلاماً، وإنارة للعالم كله بنور القرآن المبين.. هذا الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة. وسيظل المؤمنون في مستوى المسؤولية لأداء مهمة الأمة الوسط وحقها بين الدول والشعوب.

---

٣٢ البخاري، الجهاد، ٩. مسلم، الأمارة، ١٤٧.

٤. الجهاد شعور سامٍ

إن أعظم شعور ينبغي أن يتنبّه لدى المؤمن هو شعوره بالجهاد. فلا يعدّ من الأحياء من لا يحمل هذا الشعور بل لا فرق بينه وبين شواهد القبور. إنه حقاً يمثل ويرمز إلى الأموات. ولا ينظر إليه الرب الرحيم بنظر الرحمة قطعاً. لأن الذي لم ينذر نفسه لتبليغ اسم الله في الأرجاء ولم يتخذه هدفاً وغاية له، لا فرق بينه وبين الجمادات، إذ الإنسان يكتسب الحياة والحيوية بمقدار ما يحمل من روح الجهاد. لأنه لا يستطيع أن يحيي نفسه وعائلته وأمته ويقيهم من الموت إلاّ بالجهاد. نعم الحياة الحقيقية لا تتحقق إلا بالجهاد. وان أفضل وأنبل خطوة يخطوها الإنسان وأعظمها وأسماها وأكثرها فائدة وثماراً هي الخطوة التي يخطوها نحو الجهاد.

إن من أهم ما يلفت النظر من خصائص الرسول الكريم ﷺ ضمن عظيم إصلاحاته هو تكوينه لجماعة لا ترهب الموت، ولا تتراجع عما رأته صواباً في طريق الحق، وتحتفظ بأقصى درجات الحيوية والنشاط.. هذه الجماعة كانت دائمة التفكير بالجهاد بل كشفت سرّ الخلود بهذه الوسيلة، وسيخلّدون إذ لا تغلق دفاتر حسناتهم إلى يوم القيامة بفضل ما قدّموه من تضحيات جسام، بعدما اقتحموا المصاعب والمهالك في سبيل نشر الإيمان. نعم، إننا وجميع من

سبقنا من الأجيال وكل الأجيال المقبلة في ذكر مستمر لمحاسنهم وأفضالهم علينا مع أنهم قد ارتحلوا عن هذه الدنيا من الناحية المادية.

وعندما يؤمن الإنسان بالعالم الآخر يصبح الجهاد أسمى فكر وأطيب غاية وأرفع أمنية لديه. فالشعور الذي تنامى وأكتمل لدى الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين هو هذا الشعور والفهم والإدراك. فتراهم يتسابقون في الاشتراك في بدر، ويقف الأطفال منتصبين على أصابع أقدامهم كي يظهروا طوالاً كباراً لأجل الاشتراك في الحرب، ويحزن الذين لم يشترك منهم في الحرب..[٣٣]

إذ كانوا يقولون: لِمَ يجعلنا الرسول ﷺ مع النساء؟ أليس الجهاد من عمل الرجال، فلِمَ نظل في بيوتنا مثل النساء؟ وبهذا الشعور السامي انطلقت تلك الجماعة السعيدة المحظوظة إلى بدر، إلى جهاد يغير مجرى قدر الإنسانية. إذ كان الأمر حتى ذلك الوقت منحصراً في الإرشاد والتبليغ.

ولكن ما إن واجه الكافر المؤمن، وأتى الرسولَ ﷺ الخبرُ عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، استشار النبي ﷺ الناس وأخبرهم عن قريش، (فقام أبو بكر ﷺ فقال فأحسن، ثم قام عمر ﷺ فقال، فأحسن ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله ، امض لما أمرك الله به، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (المائدة: ٢٤) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون،

---

٣٣ انظر الهيثمي مجمع الزوائد ٦/٦٩ الكاندهلوي، حياة الصحابة ٢/٩٣-٩٤

فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى "برك الغماد" – يعني مدينة الحبشة – لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير. ثم قال رسول الله ﷺ : .أشيروا عليّ أيها الناس – وإنما يريد الأنصار – وذلك لأنهم كانوا عدد الناس – أي جمهورهم – قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل فقال: فقد آمنا بك وصدّقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردتَ فوالذي بعثك إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنّا لصُبُر عند الحرب، صُدق عند اللقاء... ولعلك أن تكون خرجت لأمر، وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي احدث الله إليك، فامض له، فصِلْ حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وعاد مَن شِئت، وسالم من شئت، وخُذْ من أموالنا ما شئت... فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشّطه ذلك، ثم قال: (سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم)[٣٤] فكان الصحابة الكرام في جيشان وحماس حتى قال الذين ولوّا الدبر من الكفار وفرّوا إلى مكة:

إنهم هجموا علينا هجمة واحدة فكأننا موثقون فاستسلمنا لهم فكانوا يضربون منا فوق الأعناق وكل بنان[٣٥].

---

٣٤ البيهقي، دلائل النبوة، ١٠٧/٣. ابن هشام السيرة، ٢٦٦،٢٦٧/٢ ابن كثير، التفسير ٥٥٥/٣ (باختصار)

٣٥ تفسير الطبري ١٩٧/٩–٢٠٥

نعم إن الجهاد فرض وواجب لاستمرار هيمنة دين الإسلام الحنيف ولنجاة المسلمين من الذل والخنوع وليعيشوا كرماء أعزاء. فإن لم تكن في مجتمع إسلامي طائفة تؤدي هذه الوظيفة – التي يأمر بها القرآن[٣٦] فلا حياة إسلامية إذن. وحتى لو كانت هناك حياة إسلامية فردية فهي بلا سند ولا مرتكز. وحينما يترك المسلمون هذه الوظيفة ينقلبون على أعقابهم ويهوون حتى لو اجتازوا الفضاء الواسع وربطوا بين النجوم والكواكب. فلا ينجيهم ما بلغوا من الرقي والتكنولوجيا والصناعات وحدها ما هم فيه من الهاوية. فالجهاد فرض كفاية، إن لم يؤده أحدٌ في زماننا هذا وعلى وجهه الأمثل وأهمل كلياً، يصبح فرض عين على كل فرد ويكون مسؤولاً عنه أمام الله.

والدولة كذلك عليها القيام بالجهاد المنظم. فأحياناً يتعهد الجيش بوظيفة الجهاد وأحياناً تتولاه قوى الأمن الداخلي، فكلاهما يجاهدان المعتدين من الخارج والداخل. فجهاد الأمة العسكرية المجاهدة شامل للعالم كله، لأن الأمة المجاهدة عنصر توازن بين الدول وقد عهد إليها ﷺ هذه المهمة الجليلة.

ولأجل أن تكون الأمة عنصر توازن على الأرض لابد أن يكون الجيش على مستوى الإدراك لهذه الوظيفة التي هي أقدس وظيفة وأجلّها. فلا توازن على الأرض ما لم تكن عليها أمة تتعهد القيام بهذه المهمة.

وكم هو مؤلم أن المؤمنين منذ قرنين أو ثلاثة قرون صاروا ألعوبة بأيدي آخرين يتحكمون في إقامة التوازن، فلا يقدرون أن يؤدوا دورهم في التوازن

---

٣٦ انظر سورة آل عمران: ١٠٤

العالمي. وقد أصبحت مساجد المؤمنين مأوى المساكين والخاملين، وغدت زواياهم وكر المحرومين من العشق، وتحولت مدارسهم إلى موضع تدريس الثقافة الغربية المادية(سكولاستيك) حتى باتوا يبينون قضاياهم وكأنهم في دهاليز القرون الوسطى. وكيف يستطيع المحرومون عن إدراك عصرهم أن يفرضوا ثقلهم في التوازن الدولي ؟

وأعتقد أنه لا يمكن العمل باسم الإسلام ما لم يسبق المؤمنون عصرهم في مضمار التقنية، وما لم يعيشوا حياة العشق والوجد كالصحابة الكرام، وما لم يرتبطوا بالله برباط وثيق من العبادة والطاعة كالتابعين الكرام. ذلك لأن الذي لا يعيش في مستوى عصره ولا يحل مشاكله وأدواءه بعلاجات ذلك العصر، لا يمكنه أن يعمل شيئاً باسم الإسلام.

إن كل أمة أو فرد يحمل عزة إسلامية لابد أن يعدّ نفسه مأموراً بهذه المهمة الجليلة، مهمة الجهاد، فالأمم أو الأفراد الذين لا يستشعرون في أنفسهم مثل هذه المسؤولية، ليس لهم حظ من العزة الإسلامية.

إن الجهاد مهمة جليلة وتكليف عظيم ، لابد أن تنذر جماعة نفسها له وتكون في "رباط" دائم، و بهذه المرابطة و العيون الساهرة تنجو الأمة بكاملها من كل خطر يحدق بها وتصد كل هجوم مادي ومعنوي متوقع من قبل الأعداء الداخليين أو الخارجيين. وتصبح دقائق وثواني حياة "المرابطين" الساعين في هذه المهمة مباركة كالسنوات، وسنواتهم كالعصور. فما أسعدهم! ينالون الخلود وهم مازالوا في هذه الدنيا. ذلك لأنهم قد نذروا

حياتهم لهذه المهمة فيصبح مأكلهم ومشربهم ومنامهم ويقظتهم في حكم عبادة مقبولة مثاب عليها.

ومن المعلوم أن الحسن والجمال ينقسم إلى قسمين: حُسن لعينه وحسن لغيره، فالحسن لعينه هو بذاته حسن، أما إن لم يكن حسناً بذاته ولكن بنتائجه، فهو حسن لغيره. والجهاد ضمن هذا القسم الثاني. وهذا يعني:

أن الجهاد ليس جميلاً بذاته، لما فيه من قتل وخراب، ولكن الذي يجمّل الجهاد ويحسنه أنه وسيلة لأمور حسنة. فمثلاً: الجهاد وسيلة لإعلاء كلمة الله، ولجعل المؤمن في وضع يُعده ليهيمن على موازنة الأمور في الأرض، ولصد الاعتداء على الإسلام والمسلمين، ولتعهده المظلومين والضعفاء... فالجهاد من هذه الجوانب جميل. لذا يصح القول: أن جمال الجهاد وحسنه مشروط بإعلاء كلمة الله.

نعم يجاهد المؤمن فيعتلي الفرس ويركب الطائرة ويقود الدبابة ويستعمل الصواريخ.... ولكن لا يستعمل كل هذا إلاّ لإعلاء كلمة الله.

نعم، الجهاد الذي أُمر به المؤمن هو هذا. فليس جهاداً إن كان لغير وجه الله كأن يكون للحمية والدم والعرق، أو لأي إسم آخر. فالرسول صلى الله عليه وسلم يبين الجهاد بوضوح في حديثه الذي يرويه الإمامان البخاري ومسلم إذ يقول: (مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ).[37] ومفهومه المخالف: أن من لم يقاتل لإعلاء كلمة الله ولرفع رايته في آفاق

---

٣٧ البخاري، العلم، ٤٥، الجهاد، ١٥. مسلم، الإمارة، ١٤٩-١٥١ أبو داود، الجهاد٢٦

العالم، فليس له حظ من الجهاد، وبدوره فلا جمال ولا حسن فيه. نعم، إن الجهاد هو ما كان لإعلاء كلمة الله، والمجاهد إنما يجاهد لإعلاء كلمة الله، وإنارة كل ظلام على الأرض، فيقطع البراري والفيافي ويتجاوز الجبال والغابات حتى إذا بلغ البحر المحيط يقول كما قال عقبة بن نافع رضي الله عنه: (يَا رَبِّ لَوْلاَ هـذَا الْبَحْر لَمَضَيتُ فِي البِلاَدِ مُجَاهِداً فِي سَبِيلِكَ)[٣٨] فلو وضعوه وحده في جزيرة نائية لنقّب عن وسيلة في أبعاد أخرى لإعلاء كلمة الله، وربما بلّغ الجن والأرواح الخبيثة كلمة الله، ولكأن الرسول ﷺ قد قال لأمثال هؤلاء: (الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة).[٣٩]

جاء رجل عقب فتح مكة وسأل الرسول ﷺ قائلاً: يا رسول الله إني أريد الهجرة. فأجابه الرسول ﷺ (لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية)[٤٠] فكان للهجرة معنى ومغزى قبل فتح مكة، إذ كانت تعني الجهاد. أما بعد الفتح فقد بلغت الهجرة بعداً مهما آخر من أبعاد الجهاد. أي إن الهجرة لكونها هجرة لم تعد جهاداً. نعم ليست جهاداً ولكن – من جهة – تتحقق بالجهاد.

فلم تعد الهجرة تعني انتقال المرء من مكان إلى آخر. بل يمكن للمؤمن أن يجاهد في موضعه. وهذا يعني تحويل كل إنسان ما حوله إلى حدائق وارفة ومحيطه إلى بساتين غناء. وإذا ما اقتضى الأمر إلى الانتقال فلا شك أنه مستعد لذلك ويقوم به.

---

٣٨ ابن الأثير، الكامل في التاريخ ١٠٦/٤.

٣٩ الهيثمي، مجمع الزوائد ١٠٦/٥.

٤٠ البخاري، الجهاد٢٧. مسلم، الإمارة، ٨٥. ابو داود، الجهاد، ٢

٥. الجهاد مرتع واسع للبركة والعطاء

لا شك أن ما يؤدي إلى الخير خير مثله، كما أن ما يؤدي إلى الشر شر مثله. فالذي نذر نفسه وحياته للخير وربطها لعمل الخير فإن يومه ليس أربعاً وعشرين ساعة، بل سنين طوالا. لأن ساعات يومه الأربع والعشرين تسجل كلها حسناتٍ له في دفتر أعماله، فإذا هو وهب نفسه لدعوته وعاش في حب الحقيقة والهيام بالحق فانه يحظى باللامحدود في هذا العمر المحدود، حتى في أثناء نومه ويقظته وفي مشربه ومأكله وفي حلّه وترحاله. وإن الله ﷻ ينير النقاط المظلمة في حياته جزاء نيته الحسنة وتخطيطه المتقن لأجزاء حياته وفق تفكيره الحسن لدعوته، ويوصله بفضله وكرمه إلى آفاق منيرة. فلا تبقى نقطة سوداء في حياة من وهب نفسه في سبيل الله. فليله كنهاره. نعم إن كل ثانية من عمره بمثابة سنين من العبادة، كيف لا وهو في طريق الخير. إذ كل ما يبذل في سبيل الباقي الحقيقي له ثواب عظيم مهما طال أو قصر، ولهذا فإن لحظة واحدة منه خير من ألوف السنين من حياة ميتة عقيمة.

ولأن الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين أدركوا هذا السر كانوا يراجعون الرسول ﷺ و يسألونه المزيد من طرق الخير. حتى كان منهم من يسأل: (دُلَّنِي علَى عَمَلٍ إذا عَمِلْتُهُ دَخَلْتُ الجَنَّة)[٤١].

---

٤١ البخاري، الزكاة، ١

فهؤلاء الذين استنارت عقولهم بمعرفة الله كانوا في بحث دائم عن طرق أبواب الخير. وهذا يعني تحريهم عن وسائل تيسّر لهم سلوك الطريق نحو الخلود والأبدية. فاستفساراتهم من الرسول ﷺ لم تفتر بحثاً عن طرق الخير، حتى كأنهم يتسابقون في هذا السبيل. ولهذا نرى أن الجميع رجالاً ونساءً وشيباً وشباباً في جد وجهد دؤوب في الخير وإحجام وامتناع حازم عن كل ما يحول دونه.

فمنهم مثلاً:

نسيبة المازنية: امرأة أمضت حياتها بالجهاد. نذرت نفسها مع زوجها وأولادها أن يكونوا في إمرة الرسول الكريم ﷺ، عندما تشرفت المدينة المنورة بهجرة الرسول ﷺ إليها، فاشتركت في بدر وأحد. كانت، تداوي الجرحى وتضمدهم. ولكن ما أن حمي الوطيس حتى خاضت غمار الحرب قاتلت قتال الأبطال. فغايتها الوحيدة وأمنيتها العظيمة في كل حركاتها وسكناتها أن تكون مشاركة في الجهاد مع رسول الله ﷺ. وربما عاشت أحرج فترة من فترات حياتها وأكثرها قلقاً واضطراباً عندما أبلَغَهَا الرسول الكريم ﷺ ألاّ تشترك في الغزوات مع الرجال بعد نزول آية الحجاب. حتى أنها قالت وهي تبكي: كيف أظل هنا وأنت تجاهد يا رسول الله [٤٢] فحزنت حزناً شديداً لبقائها بعيدة عن طريق للخير.

وهذا ابن عمر يقول: كنت في الثالثة عشرة من عمري يوم خرج الرسول

٤٢ الكاندهلوي، حياة الصحابة، ٥٩٧/١، ٥٩٨ ابن الأثير، أسد الغابة ٢٨٠/٩. ابن حجر ، الإصابة ٤١٨/٤

ﷺ إلى بدر، فأشار إليّ بإصبعه: تراجع. وفي ليلتها ما إن دخلت الفراش، أقسم بالله أنني لم أكرب مثل تلك الليلة.[43]

وهذا عمير بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص، كان غلاماً يوم بدر لا يتجاوز الثالثة عشر من العمر. فكان ينتصب على أصابع قدميه ليظهر طويلاً كي يشارك في الجهاد. وما أن قبله الرسول ﷺ حتى طار فرحاً حيث قد فتح الرسول ﷺ له باباً إلى الخير. فدخل من هذا الباب واستشهد.[44]

وابو سفيان الذي عادى الرسول ﷺ حتى يوم فتح مكة، ولكن بعدما أسلم كان يبحث دوماً عن باب للخير. فوجد ضالّته في الجهاد. وأُصيب في عينه بسهم من العدو فخاطب عينه المفقوءة: وما كان نفعك ولم تبصري صاحبك سبعين سنة. فرماها واقتحم صفوف العدو.[45]

وحارث بن هشام كان مع جيش المسلمين الأبطال العشرة آلاف مقابل مائة ألف من جيش البيزنطيين. فيقول: يا من قاتلتم في بدر بين يدي رسول الله ﷺ وجاهدتم بأنفسكم في أحد وبايعتم رسول الله ﷺ في الحديبية– حيث لم يكن هو من بين هؤلاء – تعالوا لنرفع هذه الراية ونتكاتف ونتعاون لئلا تسقط على الأرض.[46] وهكذا لم تسقط تلك الراية على الأرض، نعم لم تسقط على الرغم من أيدٍ تبادلتها ، لم تسقط على الرغم من أيد قطّعت لأجل رفعها،

---

٤٣ على المتقى، كنز العمال، ١٣/٤٧٦.
٤٤ ابن الأثير، أسد الغابة، ٤/٣٠٠.
٤٥ انظر ابن الأثير: أسد الغابة، ٦/١٤٩
٤٦ انظر ابن حجر، الإصابة ١/٢٩٤. ابن الأثير، أسد الغابة ١/٤٦٠، على المتقى، الكنز ٥/٣١. الحاكم، المستدرك ٣/٢٤٢

فصانوها من السقوط بأيديهم حتى قطعت وأرجلهم حتى قطعت، وأجسادهم حتى الشهادة.. فلم تسقط على الأرض.. فلئن تقدم العدو في ذلك اليوم خطوة فإنما كان على أشلاء الأبطال من أمثال حارث بن هشام حتى صار أوصالاً مقطعة.

فالجهاد لهؤلاء بلاء لا يداوى إلا بالجهاد.

واستأذن سيدنا بلال الحبشي ﷺ سيدنا أبا بكر ﷺ مرات ومرات ليغادر المدينة بعد وفاة الرسول ﷺ، ولكن أبا بكر كان يرفض طلبه كل مرة إذ كان يراه هدية تذكارية من رسول الله ﷺ له، ولكن بلالاً كان يتحرق شوقاً للجهاد، فهو معتاد على امتشاق السيف في ميادين الحرب، ورفع الراية، فلقد صاحب رسول الله ﷺ في الجهاد، لذا صعب عليه البقاء في المدينة لأداء مهمة الأذان وحدها. فانتصب قائماً يوم جمعة وفي أثناء الخطبة وقال: يا أبا بكر إن كنت أعتقتني لنفسك فاحبسني، وإن كنت أعتقتني لله ﷻ فذرني أذهب إلى الله ﷻ..[٤٧] ويمضي بلال إلى الشام ويستشهد في معركة ويدفن في قبر مجهول. وما دفعه إلى تلك البقاع إلاّ جذوة الجهاد المتقدة في داخله.

أما أبو خيثمة فقد تأخر عن اللحاق برسول الله ﷺ وصحبه في خروجهم إلى تبوك فعذّب هذا التأخر والتخلف وجدانه وأقلقه قلقاً شديداً حتى أسرع إلى جواده وتوجّه نحو تبوك، وعندما كان الفرس يتعب يحمل سرجه على ظهره ويمشي مسرعاً ماضياً في سبيله إلى تبوك. وما أن شاهد الرسول ﷺ

---

٤٧ ابن الأثير، أسد الغابة ١/٢٤٤.

وصحبه – وهم على ماء – غباراً كثيفاً من جهة المدينة حتى قال: كن أبا خيثمة. وبعد هنيهة تراءى أبو خيثمة جلياً. فسُرّ رسول الله ﷺ بمجيئه وبارك مقدمه. وقال أبو خيثمة وهو يلقي نفسه في أحضان الرسول ﷺ كدت أهلك يا رسول الله.[٤٨] لأن التخلف عن الجهاد ذنب عظيم. كان أبو خيثمة يخشى أن يهلك بمثل هذا الذنب العظيم.

إن الجهاد باب للخير عظيم، فالذي يدخل من هذا الباب لابد أن يفوز بأحد الثوابين والخيرين، فإما يكون شهيداً فهي حياة خالدة أو مجاهداً وله نعم الدنيا والآخرة.

ففي الجهاد بركات عظيمة أمثال هذه.

---

٤٨ مسلم، التوبة ٥٣. ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٢٧٨/٢ ابن الأثير، أسد الغابة ٩٣/٦

٦. الجهاد منبع حياة لا موت فيه

انه لحقيقة لا مراء فيها أن الذين يستشهدون في سبيل الله أحياءٌ يُرزقون، والدليل على هذا آيات كريمة كثيرة وأحاديث شريفة كثيرة وحوادث تاريخية لا تحصى.

فمثلاً: سليمان شاه الذي كان من سادات العثمانيين ومن المجاهدين الأوائل، وهو الأخ الأكبر للسلطان مراد، كان المتوقع أن يتولى الحكم بعد والده، ولكنه كان يتولى تنظيم الهجمات والغارات على أوروبا ويقتحم البيزنطة من قبلها. وقد وفق إلى عبور جناق قلعة بالقوارب إلى جهة أوروبا وسيطر على غالي بولي، وضمّها إلى حكمه وتقدم حتى بلغ "بولاير" وكان الناس جميعاً يترقبون يوم توليه الحكم، إلاّ أنه استشعر في وجدانه بما يشبه بشارة من مكان قصي.. فجمع رؤساء المجاهدين الغزاة وخاطبهم: إذا مت في يومي هذا، فلن يفوت البيزنطيون الفرصة على أنفسهم، وسيعيدون الكر على المواضع التي فتحناها، فوصيتي إليكم أن تجتمعوا على جنازتي يداً بيد، وتهجموا على العدو هجمة رجل واحد متوكلين على الله، مستندين إلى رسوله. وإياكم والتخلف عن الجهاد.

فلما أبكر وقعت قدم فرسه في حفرة، فوقع رأساً على عقب واستشهد. فوقع كما قال ، و اجتمع الرؤساء على جنازته وأغاروا على العدو غارة رجل واحد فشتتوا جنود البيزنطيين أي تشتيت حتى لاذوا بالفرار. و قالوا لجنود

المسلمين بعد مدة: كان يتقدمكم في كل هجمة فارس شاب طويل القامة بعمامة خضراء صارم السيف، يشتت الجنود يمنة ويسرة.

وهذا يعني: أن الله ﷻ كما وَكّل مَلَكاً كريماً يحارب بدلاً عن سيدنا مصعب بن عمير ﷺ بعد استشهاده في أحد،[49] وكما انه ﷻ يديم معركة سيدنا حمزة ﷺ العظيمة إلى يوم القيامة؛ كذلك يديم أعمال سليمان شاه الذي أراد إبلاغ اسم الرسول ﷺ إلى قلب أوروبا، حالما توفى. ذلك لأن الشهداء أحياء بنص القرآن الكريم.

وقد عبّر عن هذا أيضاً "هاملتون" قائد الجيش البريطاني في معارك جناق قلعة حيث قال: "ما كنا نهرب من حرابكم وبنادقكم بل ممن يتقدمونكم من شبان يافعين ذوي عمامات خضر، لا تؤثر فيهم قذائف المدافع وطلقات البنادق". فالشجعان الذين عبّر عنهم هاملتون هم أرواح الشهداء.. أولئك الأحياء دوماً حيث بلغوا مرتبة عدم الموت.

نعم إن المؤمن بعدما رضي أن يموت عزيزاً، فان عزته ستدوم إلى يوم القيامة كراية خفاقة باسم الدين الذي آمن به.

نعم إن موتاً كهذا لا يحظى به إلاّ من استحقر الحياة وابتسم في وجه الموت، كأولئك الأبطال أبناء الأبطال.. فالجهاد حظ أولئك الأطهار القدسيين الذين ولدوا أطهاراً، فلا يسعهم فخر الأمة وعزتها قبراً بل يدفنون في قلب الأمة الإسلامية.

---

٤٩ ابن سعد، الطبقات، ١٢١/٣. الواقدي، المغازي ٢٣٤/١

والله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ (البقرة: ١٥٤).

نعم لو رفعت الغشاوة عن الأبصار سيتيقن كيف ينعم الشهداء في العالم الآخر. وإذا ما أَمْكَن الإتصال بأرواحهم ومخاطبتهم والتحدث معهم، سيشهد بكاءهم على الأحياء. فنحن نبكي وراء الشهداء ونرقّ على أَيتامهم الذينَ تركوهم، بينما هُم يَبكُونَ على الوضع الأليم لأهل الدنيا، وعلى الدنيا التي أصبحت صنماً يُعبد من دون الله. وعلى الحياة التي غدت تمضي في رخاء وراحة ملفعة بالذل والبؤس، وعلى القعود عن الجهاد في سبيل الله، وعلى التكاسل عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى الليالي التي تمضي سوداء مظلمة، وعلى السجاجيد التي لم تبتل بالدموع الغزيرة. وعلى عدم الانكسار لوضع المسلمين الأليم. وفي الحقيقة أن الشهداء في عيش رغيد وحياة ملؤها السعادة والطمأنينة، أليسوا في كل لحظة مع الله ﷻ؟ أليست حياتنا المعاشة كالجحيم التي نعيشها قياساً بحياتهم الخالدة؟. إن هذه الحياة التي أصبحت وسيلة لدخول الشيطان فيها لإبعادنا عن الله جلّ وعلا، هي حياة يرثى لها، وصعب تحمّلها، ولكن كم هو مؤلم أننا نعيشها بلهفة ومحبة ورغبة!

علاقة

الجهَاد – المُؤمِن – الكَوْن

الفصل الثالث

١. الجهاد واجب كل مؤمن

لاشك أن لكل فرد من الأفراد وظيفة تناط به في هذه الحياة الدنيا التي لا قرار فيها لشيء. فالأموال تنفد والعمارات تخرب، ولا ينفع الإنسان إلاّ ما أرسله من ههنا إلى هناك. فما عليه إلاّ العمل الدائب والسعي الجاد ليتمكن من إرسال شئ إلى هناك قبل الرحيل إليه.

ومما ينبغي أن يُعلم قطعاً: أن كتاب أعمال الإنسان يغلق بموته، وسينفرد بما عمل، ولا يستثنى من هذا إلاّ من دافع عن دينه وأمته وعرضه وشرفه وعن كل ما يجب أن يحافظ عليه. فالذين نذروا أنفسهم لله وبذلوها وما يملكون في سبيله وفي سبيل نشر الإسلام العظيم، لا يغلق كتاب حسناتهم قطعاً، وقد ورد في حديث شريف ما يوضح هذا بجلاء:

(كلُّ ميتٍ يُختم على عَمله إلاّ الذي مات مُرابطاً في سبيل الله فإنه يُنمى له إلى يوم القيامة، ويأمن من فتنة القبر).[٥٠] فإنه سنّ سنة حسنة وشق نهجاً وسبيلاً إلى الخيرات، فكل حسنة يعملها من يأتي بعده يُكتب مثلها في كتاب حسناته، فضلاً عن ذلك فهو آمن من فتنة القبر وعذابه، لأنه لم يمت موتاً حقاً حتى يرى عذاب القبر؛ بل بدّل مكاناً بمكان فحسب، فما تركه من جليل الأعمال يعيش كل حين في قلوب الناس.

---

٥٠ الترمذي، فضائل الجهاد ٢. أبو داود، الجهاد ١٥.

فالذي يقول أن محمداً ﷺ والخلفاء الراشدين والصحب الكرام رضوان الله عليهم أجمعين قد ماتوا وانتهوا، فهو الميت حقاً، ذلك لأنهم قد سنّوا سنناً حسنة عظيمة. وفتحوا سبلاً منيرة لا نعرج على شئ في طريقنا في الحياة إلاّ ونرى ما يخصّهم من آثار جليلة. وكلما رأينا آثارهم سجدنا سجدة شكر لله قائلين: ليرفع الله ذكركم، ويرضَ عنكم أجمعين، فقد مهّدتم لنا السبيل إلى الله تعالى ويسّرتم لنا الطريق إليه فندرجها بأمان واطمئنان.

ولهذا تتضاعف حسناتهم وفضائلهم ومزاياهم وترتفع حتى تبلغ العرش الأعظم. فهؤلاء بلا شك آمنون من عذاب القبر، لأن هذا العذاب يخص الأموات. نعم، إن عذاب القبر لأموات الروح وأناسي الجسد الذين لم يصبغوا حياتهم بالدين الذي هو صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة. فهؤلاء لم يحتسبوا حياتهم للحقيقة الأحمدية، ولم يتخذوا القرآن دستور حياتهم. أما الذين نذروا حياتهم لهذه الحقائق وبذلوها في سبيل الله، فهم في منجاة من عذاب القبر. يقول سيد الكونين سيدنا محمد ﷺ في الجهاد:

(مَنْ رَابَطَ لَيْلَةً فِي سَبِيلِ الله سُبْحَانَهُ كَانَتْ كَأَلْفِ لَيْلَةٍ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا).[51]

فعليكم إذن أن تصوموا ألف يوم وتقيموا ألف ليلة كي تبلغوا ثواب المرابط ليلة واحدة في سبيل الله تجاه العدو الذي يريد الحلول في بلدكم وتخريب أمتكم. بل هذا أرضى لله وأكثر قبولاً عنده.

من المؤمنين من يوفي بمهمة الجهاد حق الوفاء فينال الفضائل التي ذكرناها

---

٥١ ابن ماجة، الجهاد، ٧.

آنفاً. ومنهم من يعجز عن القيام الفعلي بالجهاد ولكن ينال جزاء عمله مثل أولئك فضلاً منه ﷻ. بمعنى أن من يعمل في سبيل الإيمان والقرآن – ولو حمل حجراً للبناء – لا يضيع عمله هباءً قط.

فمن يتبنّى القضية التي يُشاورُ بشأنها و يعمل على إنجازها ويصبح وسيلة في خدمتها يكافأ – كلٌ – حسب نياته ويثاب على عمله. فبدءاً من الكاتب الذي يجاهد بقلمه وحتى الناشر له. كلٌ يأخذ ثوابه كاملاً غير منقوص.

ولهذا ينبغي على كل مسلم أن يشترك في هذه المأدبة العظيمة بما منحه الله سبحانه من إمكانات وقابليات، ليغنم النتيجة الحاصلة من عمل الجميع.

يروي أبو هريرة ﷺ في حديث المعراج:

(... فسار وسار معه جبريل عليهما السلام. قال: فأتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم كلما حصدوا عاد كما كان. فقال النبي ﷺ: يا جبريل، ما هذا! قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله، تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف، وما أنفقوا من شئ فهو يُخلفه، وهو خير الرازقين)[٥٢].

بمعنى أن الرسول ﷺ لما ارتقى بالمعراج سماءً سماءً بعبوديته وعبديته إلى الله منسلخاً من عالم الناس مرتقياً إلىعالم الملكوت، فرأى مناظر شتى، واطلع على مشاهد كثيرة. فشهد في هذه الأثناء أن قوماً يزرعون في اليوم ويحصدون ما يزرعونه في اليوم نفسه. وما أن يجنوا الحاصل حتى تزرع البذور مرة أخرى وتثمر مرة أخرى. وعندها استفسر الرسول الكريم من جبريل: يا جبريل من هؤلاء؟...

---

٥٢ ابن كثير، التفسير ٣١/٥ المحقق

ومن هنا فالمؤمن إذ يضحي بحياته كلها وأذواقه وراحته وشبابه في سبيل الله عليه أن يعتقد أنها لا تذهب هباءً منثوراً ولا تفنى فناءً قط بل ما إن يرحل إلى العالم الآخر، يرحل إليه مطمئن القلب حيث سيرى أنه لم يهدر مثقال ذرة من عمله قط. نعم، إن الله الحفيظ على كل شئ والرقيب على كل شئ سيحافظ على ما بذله المؤمن في سبيله. نعم، الله يحفظ عمل المؤمن ويجازيه خير الجزاء ما لو خرّ له ساجداً - إن كان السجود وارداً في الجنة- لا يرفع منه رأسه إلى الأبد لا يوفي شكره لله على ألطافه العميمة وإنعامه السابغة عليه. واعتقد أن اللذة الروحية الحاصلة من هذه السجدة لا تتخلف عن لذات الجنة الأخرى.

والرسول ﷺ يبيّن في حديث شريف الشركة في ثمرات الجهاد فيقول: (مَنْ جَهَّزَ غَازِياً فِي سَبِيلِ الله فَقَدْ غَزَا وَمَنْ خَلَفَ غَازِياً فِي سَبِيلِ اللهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا)[٥٣].

نعم، إن من لا يقدر على الإشتراك في الجهاد بالذات ولكن يستطيع أن يعاون من هم في الجهاد ويحتضن بمؤسساته المجاهدين، ويقيهم، فانه يكون معهم في الجهاد فعلاً. فالذين عاونوا مجاهدي بدر وجهّزوا مجاهدي أحد وبذلوا أموالهم لمجاهدي تبوك سيسيرون معاً إلى الرب الجليل ويحشرون معاً. ذلك لأنهم استجابوا لأمر الله ورسوله في الجهاد وإن لم يشتركوا مع المجاهدين فعلاً لأعذار لهم، إلاّ أنهم لم يتخلفوا عن الجهاد.

---

٥٣ البخاري، الجهاد، ٣٨. الترمذي، فضائل الجهاد، ٦. النسائي، الجهاد، ٤٤

نعم إن الذين خرجوا للجهاد في تبوك سيجدون أزواجهم وأولادهم وشيبهم وشبابهم معهم يوم القيامة. إذ الصبيان أتوا بسكاكينهم وحرابهم ووضعوها أمام الرسول الكريم ﷺ وأتت العرائس بقيراطهن، وحتى الشيوخ أتوا بما لديهم من عصي.. فبذل كلٌ بما لديه لله ووضعه أمام الرسول ﷺ قائلين لتكن لنا مشاركة في الجهاد.[٥٤] فهؤلاء جميعاً سيعاملون معاملة من جاهد جهاداً فعلياً. يذكر ذلك الرسول الحبيب ﷺ في حديث آخر:

(إنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالاً مَا سِرْتُمْ مَسِيراً وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِياً إِلاَّ كَانُوا مَعَكُمْ حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ)[٥٥] وفي رواية أخرى (إلاّ شاركوكم في الأجر).

بمعنى أن الأعذار كالشيخوخة والعجز والفقر والأنوثة او ما شابه ، مما يقيد المرء عن الاشتراك في الجهاد الفعلي، لا تنقص من ثواب المجاهدين، حيث سيقبلهم الله الجليل كالمجاهدين فعلاً ويثيبهم على عملهم حسب نياتهم. وهذا ما نفهمه من بشارة الرسول الكريم ﷺ في الحديث السابق. ونعدّ إيماننا هذا – كما هو الوارد في الحديث الشريف– من قبيل الدعاء بحقنا. ولاسيما في الوقت الحاضر الذي ترك فيه الجهاد كلياً. فنحن نعتقد يقيناً أن من اشترك جزئياً أو كلياً في هذا العمل – العمل للإيمان والقرآن – سينال ثواب الجهاد كاملاً، ونسأل الرب الكريم ألاّ يخيبنا في يقيننا هذا.

---

٥٤ الواقدي، المغازي، ٣/٩٩١–٩٩٢ يوسف الكاندهلوي، حياة الصحابة ١/٤٢١، ٤٢٢

٥٥ مسلم، الإمارة، ١٥٩. البخاري، المغازي، ٨١.

٢. لنستعد للجهاد كل آن وحين

على المؤمنين أن يكونوا على استعداد كامل لما قد يداهمهم من أخطار حقيقية في قابل الزمان، ولا يدّخروا شيئاً من صحتهم وشبابهم إلا وبذلوه في هذا السبيل، وعليهم أن ينسّقوا حياتهم وفق ذلك لئلا يقعوا في ورطة وحرج أمام ما يستجد من أحداث فيقلقوا ويضطربوا ويحاروا تجاهها.

فالقرآن الكريم يحثنا إلى هذا بالآية الكريمة: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴾ (الأنفال: ٦٠) والرسول الكريم ﷺ يأمرنا: (مَنِ احْتَبَسَ فَرَساً فِي سَبِيلِ اللهِ إِيمَاناً بِاللهِ وَتَصْدِيقاً بِوَعْدِهِ فَإِنَّ شِبَعَهُ وَرِيَّهُ وَرَوْثَهُ وَبَوْلَهُ فِي مِيزَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[٥٦].

فالحديث الشريف يحث على الاستعداد للجهاد بهذا الأسلوب الملائم، وكذلك عندما سأل الصحابة الكرام رضوان الله عليهم الرسول ﷺ عن الخيل قال: (اَلْخَيْلُ لِثَلاَثَةٍ: لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وِزْرٌ، فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ، فَأَطَالَ فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيَلِهَا ذَلِكَ مِنَ الْمَرْجِ أَوِ الرَّوْضَةِ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٌ، وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيَلَهَا،

٥٦البخاري، الجهاد، ٤٥. المسند ٣/٣٧٤

فَاسْتَنَّتْ شَرَفاً أَوْ شَرَفَيْنِ، كَانَتْ أَرْوَاثُهَا وَآثَارُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْقِيَهَا كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ. وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي هِيَ عَلَيْهِ وِزرٌ فَهُوَ رَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْراً وَرِيَاءً وَ نِوَاءً لأهلِ الْإِسْلَامِ فَهِيَ وِزْرٌ عَلَى ذلِكَ).[٥٧]

وقد ذُكر الخيل في الحديث لأنها أسرع واسطة للنقل والحرب لعصر معين. أما في الوقت الحاضر فقد تغير الزمان، والناس يستعملون السيارة وغيرها من وسائط النقل والحرب، لذا يمكن أن ينسحب الحكم الوارد للخيل على وسائط النقل المستعملة في وقتنا الحاضر.

نعم، قد تكون سيارة وزراً على صاحبها، حيث يستعملها في السفاهة والآثام، وربما وسيلة للعداء للإسلام. وسيارة تكون ستراً لصاحبها حيث يستعملها في أمور مشروعة، وربما واسطة لرزقه ولا ينسى حق الله فيه. وسيارة أخرى نُذرت في سبيل الله. يتنقل بها صاحبها من قرية إلى أخرى ويصطحب فيها المرشدين والوعاظ إلى مواضع المحتاجين إليهم. فكل قطرة وقود تحرقها هذه السيارة، وكل قرش يصرف عليها، وحتى الغازات العادمة الخارجة منها، والأصوات الصادرة منها، والطين الذي التصق بعجلاتها.. كل ذلك تُكتب حسنات في سجل حسنات صاحبها، وكأن حركة العجلات تولد الحسنات وتسجلها كتروس المعمل. فكل ما يدخل فيها وما يخرج منها وحتى الآثار التي تتركها على الأرض تؤدي وظيفة قلم يكتب الحسنات باستمرار.

٥٧البخاري، الجهاد، ٤٨. الترمذي، فضائل الجهاد، ١٠

فنحن نقدر فائق التقدير ذلك المحظوظ الذي نذر سيارته لخدمة الإيمان والقرآن وحمّلها أعباء دعوة الحق، ولسان حاله يقول: إن الغاية من شرائي هذه السيارة هي نشر الحقائق. وغني عن التعريف أن هذا تهيئة وتحضير ومقدمة للأعمال الجليلة التي تتحقق بإذنه تعالى في المستقبل.

٣. الجهاد يكتمل به المؤمن كل آن

إن الجهاد – المادي والمعنوي – أعظم دافع ودستور للحياة الإسلامية، فإذا خبا في المؤمن روح الجهاد يذبل وينطفئ أيضاً عشق الإيمان والإسلام رويداً رويداً، فتحيطه شرارات الفتن من كل جانب، حتى تمسه ألسنة لهيبها. والفتن تولّد فتناً أخرى، فتغدو بيوت هؤلاء ومحالهم وأزقّتهم وأسواقهم في النهاية أوكار لعنة وفساد. حتى تخور قواهم أمام الأحداث الرهيبة فلا ينبض لهم عرق تجاه حادث أو فعل.

و كذلك تزول من القلوب بركة الوحي بنسبة زوال الرغبة في الجهاد والشوق إليه، وينمحي الشوق والعشق لإدراك المقاصد الإلهية، حيث القلوب باتت بعيدة وغريبة عن أن تكون مهبط الإلهام الرباني، فيحرمون من الأسرار الإلهية. فنهار هؤلاء مظلم كليلهم، ذلك لأن الله ﷻ إنما يتفضل بالتجليات والفيوضات على قلوب الذين يتحملون أعباء الجهاد ويتعهدون إعلاء كلمة الله بما يوافق عظمته سبحانه، فلا يتحول المجتمع الذي يعيش فيه هؤلاء إلى أنقاض وخرائب.

نعم، إن تكامل الفرد والأسرة والمجتمع، بأكمله مرهون بالجهود التي تبذل في سبيل إعلاء كلمة الله في الحياة والمجتمع. فإن قدّم المؤمنون شيئاً من الهمة والجهد بتجوالهم في القرى والأرياف، قرية تلو الأخرى، قصبة إثر قصبة،

يبلّغون الناس دعوة الله الحقة، فهذا يعني أن الله سيحيي ذلك المجتمع من نواحيه كافة، أما إن كان المجتمع محروماً من هذه الروح وهذا العشق، فانه يتهاوى على رؤوس أفراده. إن اليوم، أو غداً، أو بعد غد. وإن غداً لناظره قريب. والتاريخ يشهد كم من أعزاء أصحوا أذلاء، وكم من أغنياء وأثرياء غدوا فقراء معدمين متى ما حرموا الجهاد. فالذين كانوا يتوّجون الملوك أصبحوا أذلاء بعد أن دارت الأيام، وصاروا يتوسلون بتقبيل الأقدام. ونحن نتلو اليوم عليهم الآية الكريمة: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۝ ﴾ (الدخان: ٢٥-٢٧). وربما يأتي يوم – حفظنا الله منه – يتلون علينا الآية الكريمة نفسها!

نعم، لقد قُرأت (الفاتحة) على أرواح الأمويين والعباسيين والسلاجقة والعثمانيين.

فإن كنا لا نريد أن تتحول الأناضول، آخر معقل الإسلام تجاه غزو الغرب، إلى مقبرة تقرأ فيها (الفاتحة) علينا الابتعاد عن أحوال الموتى وأوضاع المقابر، بمعنى أن نكون أحياء حياة تليق بالإنسان.

فنحن نعظمُ بنسبة تعظيمنا لدين الله، فنكتسب قدراً وحالاً لدى الله بقدر عظمة اسمه الجليل في قلوبنا، أما إذا تهاونّا بالأمر وأهملنا واجبنا في التبليغ والدعوة، وتركنا مهمتنا فنصغُر بقدر ذلك أمام الله، ونُدَمَّر ونزول.

فإن كنتم تريدون أن تكونوا أحياء أعزاء، عليكم أن تضعوا إسم الله في سويداء قلوبكم، وتجعلوه سبحانه غاية حياتكم، وتزيلوا كل ما ليس له صلة

بالله من حياتكم، بل حتى من أحلامكم. قولوا معاً: إن القبر الذي هو رواق الآخرة خير لنا من حياة لا أتمكن أن أحبّ الله فيها ولا أستطيع من تبليغ دعوته سبحانه، ولا أقدر على إنفاذ أوامره في الحياة. فالموت خير لي من أن أحمل قلباً لا ينفتح لتجلياته جل وعلا لتغسل أدرانه.. اسعوا لبعث هذا الشعور السامي وهذه الفكرة الطيبة في قلوب الأمة جميعاً. وحاولوا أن يقف المجتمع على قدميه بعد أن انهارت فيه كثير من المقومات. وذلك لينجيكم ربكم من أن تكونوا كالقطعان الضالة.

المؤمن يعرف ما ينبغي أن يفضّل وكيف يفضّل، وفق الموازنة المطلوبة بين الدنيا والآخرة ويستشعر في وجدانه بأهمية الآخرة وإيثارها على أمور الدنيا الفانية، فهو دائماً على استعداد لتفضيل أمر الله على أمور الدنيا. وبحسب هذه المفاضلة لا يُضحى بالأمور والأشياء الباقية السرمدية لأجل أمور زائلة تافهة، بل يهتم بالدنيا بقدر مكوثه فيها وبالآخرة بقدر بقائه فيها. فلا يقع في إفراط اليهود ولا في تفريط النصارى.

والمؤمن يعدّ التذلل تجاه أمور دنيوية هو المرتبة الأولى للتعرض للذل والخزي في العقبى. لأن الذين جعلوا الدنيا أكبر همهم ومبلغ علمهم يحرمون منها فضلاً عن تضييعهم للآخرة. فالذي يهاب الموت يفتقد لذة الحياة كذلك والذي يفقد صوابه تجاه العدو في جبهة القتال ويفرّ من الزحف خوفاً على حياته وعشقاً لها أو يعتريه الاضطراب والقلق على حياته ومعيشته فيجد الحل في الفرار من ساحة الجهاد، يحرم من الحياة عينها والعيش نفسه. وحتى الذي

ينزوي في صومعته لئلا تفلت منه الدنيا وما فيها، متخلفاً عن الجهاد المقدس، يحرم من تلك الصومعة أيضاً. فساقطو الهمة سيفقدون يوماً كل ما لديهم، وينقلبون رأساً على عقب. بينما ذوو الهمة العالية ممن يهدفون إعمار الكون بنجومه وكواكبه يستصغرون الدنيا ويأبون أن يروا العالم يقوده حاكمان إثنان بل يجدون في أنفسهم الأحقية لها فيعيشون برؤى حاكمية العالم طوال عمرهم.

نعم، إن الذين فضّلوا الموت على الحياة، قد كشفوا عن سر الخلود، ووجدوا الطريق إلى العيش الأبدي. وأما الذين افتتنوا بسحر الدنيا وجمالها فيتشبثون بها بما لديهم من طاقة تاركين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مهملين ما يجب عليهم في هذا الصدد.. هؤلاء يدفعون بالأمة إلى التهلكة فضلاً عن أنفسهم. ويتركون الجيل المقبل ضائعاً تائهاً دون صاحب أو حامٍ.

فجهاد المؤمن يتوقف على تلافي هذه العواقب الوخيمة.. نعم إن الشوارع والأزقة تتنور بجهاد المؤمن، ولا يندفع الفوضى والإرهاب الذي أغرق الدنيا في بحر من الدماء إلاّ بجهاد المؤمن. والسلام الدائم للإنسانية قاطبة وسعادتها إنما تستقر على الأرض بجهاد المؤمن.

فالمؤمن هو هذا الإنسان الذي يسير نحو هذه الغاية السامية. ولربما يبلغ الغاية أو لا يبلغها، ولكن في كلا الحالتين ستحتضنه الرحمة الإلهية وسيحشر مع السعداء الأبرار الذين قضوا نحبهم في سبيل هذه الدعوة، وتمسكوا بتلابيب الرحمة الواسعة.

ومما لاينبغي أن ننساه هو هذه الحقيقة: أنه بحسب المؤمن أن يسلك طريق الحق ويثبت عليه وليس من الضرورة بلوغ النتيجة دائماً. فبلوغ كل إنسان إلى الهدف غير وارد. وإنما على كل واحد أن يتحرك ويسكن ويعمل ويسعى ويجدّ لبلوغ الهدف. أما حصول رضى الله في هذه السبيل فقد لا يتيسر إلاّ لمن وفّقه الله.

نعم، إن ما كان يخفق به قلب الغازي عثمان ويضطرب له ويقلق عليه لسنين طويلة قد تحقق بيد أحفاده. فكانت كل خطوة خطاها سلطان إثر سلطان عظيمة بقدر النتيجة الحاصلة منها. ولها نفس القيمة والأهمية عند الله. فأعمالهم كلها جهاد، والذين اشتركوا معهم جميعاً في هذا الجهاد يسجلون في سجل المجاهدين. نعم، إن كل من امتطى جواده وهيأ فرسه وحمل قوسه وشدّ الرحال إلى ديار الكفر لتبليغ دعوة الإسلام يسجل في سجل المجاهدين. فلا فرق بينهم وبين الحاكم الذي قاتل في المعارك ولا فرق بينهم وبين من ضم البحرين العظيمين ضمن سلطنته وحاكميته فاصبح عنصر توازن في الأرض حتى سكّت النقود باسمه، ذلك لأن كلاً منهم كان يستهدف الحقيقة نفسها ويتحرك ويسعى لها.

نعم إن الدنيا التي سينشؤها فدائيو المحبة هي أساس السكينة ومنبع الطمأنينة ومرتكز السلام الذي سيعمّ الإنسانية قاطبة. فكل خطوة تُقدّم في هذه السبيل لإنشاء مثل هذه الدنيا خطوة مقدسة، وكل همة تدفع في هذه السبيل جليلة عظيمة مهما كانت صغيرة، فان كان باستطاعتكم أن تخطو خطوة واحدة فاخطوها قبل أن تنقطع أنفاسكم.. تسابقوا في السير إلى الله تعالى مع الملائكة الكرام كي يعزّكم الرب الجليل ويرفعكم إليه تعالى، حتى إذا

مـا توفـاكـم قـبل إنجـاز المسـابقة، فقد فزتم.. نعم لا تضيع عنده حبة من خردل من الأعمال.

وتأمل هذا المعنى في قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيماً﴾ (النساء: ١٠٠).

ولعل إيراد سبب نزول هذه الآية الكريمة يوضح المسألة أكثر:

كانـت القلـوب تـتحرق شـوقاً إلى الإيمـان بـالله. والنـاس بـدأوا يـردون إلى منبع الفيض الإلهي في المدينة المنورة زرافـات ووحداناً، حيث ذابت الحواجز بين القلـوب وأصبح الجمـيع يفـدون إلى الرسول الحبيب ﷺ في المدينة المنورة، حتى أصـبح الأعـداء السـابقون أصـدقاء وأولـياء.. وكـان مـنهم جـندب بـن ضـمرة، الـذي قال: عليّ أن اذهـب إلى المدينة.. وانسلّ من بين الكفار متوجهاً إلى المدينة المنورة، فكان يستشعر بنسائم المدينة من بعيد.. ولكن أصابه مرض شـديد أقعـده عـن الذهـاب والهجـرة، فلم يستطع أن يبلغ غايته.. ولما أحس أنه سيموت مـدّ يديـه إلى السـماء بقلـب ملتـاع. وقـال: يـارب إقبل احداهـا يدك والأخـرى يـد الرسول الكريم ﷺ فأنا أبايعك، بمثل ما بايعك به رسـول الله ﷺ .. وتوفـى قـبل وصـوله المدينة المـنورة. ونقـل الخـبر إلى رسـول الله ﷺ. وقـال بعـض الصـحابة أن جـندب لا يعـدّ مهاجـراً ولا يفـوز بـثواب المهاجـرين[٥٨].

٥٨ابن الأثير، أسد الغابة، ١/٤١٢-٤١٣، السيوطي، الدر المنثور ٢/٦٥٠-٦٥٤

فنزلت الآية الكريمة، مبشّرة بأن جندب من المهاجرين. وان من يترك بيته بنية الهجرة إلى الله ويموت في الطريق ينل ثواب المهاجر.

نعم، إن سالك طريق الحق، هو على الحق. فالذي يوصل إلى الحق، حقٌ مثله. نعم، قد لا يتمكن كل أحد أن يبلغ الكعبة والطواف حولها واستلام الحجر الأسود وتقبيلها ثم التطهر من الذنوب على عرفة. ولكن من كان يحمل عشقاً لهذا الطريق والسلوك فيه، وكان همه وفكره يدور حول هذا، فلا يدعه الرب الجليل ﷻ وهو الرحمن الرحيم ولا يترك ذلك القلب الواله العاشق محروماً من الثواب.

انه لا فرق بين الصغير والكبير من الأعمال التي تؤدّى في سبيل الله. ألا فليعلم أولئك الذين يقولون: إنني لا أتمكن من أن أجاهد بمثل ما تعرّفون الجهاد ولا أستطيع أن أبلّغ تلك المسائل، ولا أتمكن أن أتعهد بالدخول تحت طائلة أموال أنفقها في سبيل الله... وأمثالها من المعاذير.. فليعلم هؤلاء أن من يشترك في هذه المأدبة الربانية ولو بملعقة صغيرة ينل – من دون أن يشعر – ثواب من اشترك فيها ملء الوديان والبحار.

نعم لا عبرة بصغير العمل وكبيره ما دام في سبيل الله، فرُبّ عمل بقدر ذرة في سبيل الله يرجّح على الأطنان من الأعمال، ورُبّ خطوة واحدة في تلك السبيل تجلب من البركات والخيرات ما يعمر بها الإنسان آخرته، ولهذا عليكم بخلوص النية في العمل لله. وابذلوا ما لديكم وما تستطيعونه من عمل، ولا يساورنكم شئ من الظن فإن عناية الله ورعايته معكم.

٤. الرباليون ممثلو الحاكمية

إن الجهاد الذي بدأ منذ آدم عليه السلام واستمر بالأنبياء الآخرين، قد أدامه مئات من الربانيين المعروفين والمجهولين لدينا، في كل فترة من فترات التاريخ. والقرآن الكريم يعلّمنا هذه الحقيقة بالآية الكريمة الآتية:

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ۞ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۞ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۞﴾ (آل عمران: ١٤٦–١٤٨).

فالآية الكريمة تذكر (الربانيين) الذين يستحقرون الحياة ولذائذها كافة، وكل ما يعود إليها، وهم لا يسكنون ليل نهار في ابتغاء مرضاة ربهم ويبذلون كل غال ونفيس في سبيله، فقد نذروا أنفسهم لله، ينشدون الحق دوماً، ولسانهم رطب بذكره الجليل. فهؤلاء يرتبطون بالله ربهم بأوثق رابطة، وجهادهم نابع من صميم قلوبهم.. نعم انه جهاد الربانيين الذين لا يهنون لما أصابهم في سبيل الله ولا يستكينون ولا يضعفون. فلا يؤثر فيهم شئ حتى لو انشقت السماء عليهم وانشقت الأرض وابتلعتهم ودارت رحى المصائب على رؤوسهم. فهؤلاء يسيرون في سبيلهم لا يبالون بالبلايا لا يفت جلل في

عضدهم وعزمهم وإقدامهم في طريق الحق الذي آمنوا به. فهم أبطال الصبر ورجال الثبات. فالصبر مغروز في فطرتهم بل هو اشتهاء وشوق فيهم. فهذا الشوق والشهية من أهم الوسائل لجلب رحمة الله عليهم. ذلك لأن الله يحب الصابرين.

ومن جهة أخرى تراهم يتسابقون مع الملائكة في الطهر والعفة، متخذين طور الأنبياء قدوة في تجنبهم الآثام والمعاصي. فهم على علم من أن الإثم وقساوة القلب تعرّضان الإنسان إلى الخور وقلة العزم وضعف الثبات. لذا يستمرون في حياتهم وهم يحملون عزماً وإقداماً وثباتاً ويلتجئون إلى ربهم كل حين راجين غفرانه لذنوبهم وإسرافهم في أمرهم.

نعم إن الإثم مانع وعائق لنزول الرحمة الإلهية بمعناها الكامل. لذا فلابد من التوبة من الإثم فوراً، ولعل تقديم التوبة والمغفرة على النصر في الآية الكريمة هو من هذا الأمر: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۞ فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٧-١٤٨). إن القرآن الكريم يبين لنا طريقاً سوياً لجلب محبة الله ورضاه، وهو يرشدنا: إن كنتم تريدون ذلك، فها هو الطريق.. كونوا من الربانيين. ومن هنا كان كل نبي من الأنبياء يربي في أمته الربانيين الذين يمثلون دعوته ويسلّم راية الجهاد لأيديهم. فلكل نبي ربانيون من هؤلاء قلّوا أم كثروا.

فلقد مضت هذه السنة الإلهية هكذا حتى بلغت رسولنا الكريم ﷺ.

والذين أنشأهم الرسول الكريم ﷺ من الصحب الكرام كلهم ربانيون. فكل صحابي رمز للجهاد والبطولة والثبات. وكل صحابي كأنه على صورة حواري منذ الخلق، فهو أزهد الزهاد وأعبد العبّاد ليلاً، وهو في النهار بطل يلقي الرعب حتى في قلوب الأسود الضارية. فأقوى الجيوش الجرارة ينهزم أمامهم ويهربون كالأطفال الصغار. ذلك لأنهم عشاق الموت، في حين أنَّ أعداءهم يهربون خوفاً من الموت وهلعاً منه.

واليكم أمثلة من خير القرون:

آ. أنس بن النضر:

لم يشترك في بدر، وهو الذي التحق مع أهله أجمعين بالنور، وحظي بالنور وأصبح نوراً منوراً، وولج طريق النور لنشر نور الحقيقة... ولكنه مع هذا لم يقدّر له الاشتراك في بدر لأسباب خارجة عن طوقه. فشقّ ذلك عليه ولهذا كان دائماً يتألم ويتحرق، ولاسيما عندما عاد أسود بدر من الغزوة فأخذ يضرب يده على ركبته متألماً وقال: (أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبتُ عنه، لئن أراني الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليَرَيَنّ الله ما أصنع)[٥٩].

وبعد مضي سنة واحدة، أتت قريش – انتقاما لمعركة بدر – بقوة تفوق أضعاف أضعاف قوة المسلمين، وبلغت أبواب المدينة المنورة، فاستقروا على سفح جبل أُحد – الذي يبعد عن المدينة المنورة قريباً من خمس كيلومترات – فأنس بن النضر الذي لم يقدر له أن يشترك في بدر، هو الآن في معركة أحد

٥٩البخاري، تفسير سورة الأحزاب ٦ / ١٤٦. مسلم، الإمارة، ١٤٨

بكل طاقاته وهمته، فلما حمي الوطيس كان أنس يضرب أعناق كل من يقابله من الكفار يمنة ويسرة، ويغير على الموت نفسه في كل موضع في سبيل إعلاء كلمة الله، ولكن الموت الذي سيبتلع هذا التواق إليه لا يتراءى في الأفق بعد.

أوشكت الحرب أن تضع أوزارها، وأنس محزون متألم من عدم فوزه بالشهادة... وفي هذه الأثناء إذا بخالد بن الوليد يغير فجأة على المسلمين، فيقع الاضطراب في صف المسلمين، ويتشتتون حتى أُشيع أن الرسول الكريم ﷺ قد قتل، مما سبّب شدة الاضطراب في صف المسلمين، إلاّ أن أنس هو الوحيد من بين الصف لم يحرك قدماً إلى الخلف قط. إذ كان يلقى بنفسه على العدو، وهو يقول إن كان حقاً قد مات رسول الله ﷺ فلِمَ تعيشون أنتم... أنس بن النضر العاشق للموت، التواق لشراب الشهادة.. رفع يديه قائلاً: اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء - يعني الكفار صبيان الظلام - الذين لا يعرفون الله ورسوله.[60]

نعم إن أنس بن النضر يبرئ ذمته ويبعد نفسه عما يعمله هؤلاء الكفار ويلتجئ إلى ربه تعالى. ثم ألقى نظرة إلى صفوف المسلمين المضطربة فاغرورقت عيناه، كان المنظر مؤلماً جداً بالنسبة إليه. صحيح أن العدو لم ينل منهم شيئاً ولكن ما شاهده من تفرق الصف وتشتته كأنه سهم مسموم أصاب صدره. فقال: اللهم أعتذر إليك مما صنع هؤلاء.[61] ثم اندفع على صفوف العدو ولم يعقب، فلم يكن يدور في خلده لحظةً الخوف وليس في قاموسه

٦٠ انظر إبن كثير، التفسير٦ / ٣٩٤- باختصار- من رواية مسلم والترمذي والنسائي
٦١ المصدر السابق

كلمة الخوف، إذ كان يحب الموت أكثر من الحياة. فدارت رحى الحرب مرة أخرى. ورغم كل ما جرى فالنتيجة كانت أيضا لصالح المسلمين. إذ ترك العدو الساحة وولّى بعدده وغدده. وما ترك غير الخسران والخذلان والضياع الكثير.. ويصح أن يطلق عليه الفرار بنفسه، إذ ما كان لهم أن يفكروا بالعودة مرة أخرى للحرب وقد تعقبهم الرسول ﷺ مع ثلة من المسلمين.

بلغ عدد شهداء أحد ما يقرب من سبعين شهيداً.. وكان من بينهم أنس بن النضر فوجد فيه بضع وثمانون ضربة سيف وطعنة رمح ورمية سهم حتى قالت أخته: فما عرفت أخي إلاّ ببنانه[٦٢]. ونال أخيراً مرتبة الشهادة. والقرآن الكريم يذكره ومن معه في هذه الآية الكريمة: ﴿مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب: ٢٣). وكان أنس بن النضر من الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.[٦٣]

ب. البراء بن مالك:

لم يولّ سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ البراء بن مالك قيادة الجيش على الرغم من بطولاته الفائقة وبلائه الحسن في المعارك. ولما سئل عن السبب: قال: شجاعته.

نعم انه كان شجاعاً وجريئاً إلى درجة قد يورد الجيش المهالك بإقدامه،

---

٦٢ المصدر السابق.

٦٣ البخاري، الجهاد، ١٢. ابن الأثير، أسد الغابة، ١/١٨٢-١٨٣.

فسيدنا عمر بن الخطاب ﷺ لم يوله الجيش مع حبه الشديد له، خشية أن تؤدي جسارته الفائقة إلى عدم الأخذ بالحذر.

هكذا البراء لا يعرف الخوف. وقد شهد جميع الغزوات فضرب أعناق الكفار، فكان يتعقب الموت في كل مشهد، فإن لم يجده يتألم ويحزن ويرجع مهموماً من ميدان الحرب!

ولقد أصبح قاب قوسين من الشهادة في اليمامة، إذ لما لم تفتح أبواب القلعة، تسلق الأبراج ورمى بنفسه منها إلى داخل القلعة، والعدو يمطره بالنبال، فجرح جروحاً بالغة.. ولكن لم ينل في اليمامة أيضاً ما أراد.

انه صحابي مستجاب الدعاء. وقد وصفه الرسول ﷺ بين جمع من الصحابة الكرام رضي الله عنهم (كَمْ مِنْ اَشْعَثَ اَغْبَرَ ذِى طِمْرَيْنِ لاَيُؤْبَهُ لَهُ لَوْ اَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ، مِنْهُمُ الْبَرَاءُ بنُ مَالِكٍ)[٦٤].

فكان الصحابة الكرام إذا تعسّر عليهم أمر لجأوا إلى البراء بن مالك للدعاء. وحدث هذا كذلك في الأهواز، المعركة التي وقعت بين المسلمين والفرس. إذ لما حدث التشتت في صفوف المسلمين كان الناس يرقبون البراء وينتظرون منه الدعاء للنصر، فرفع يديه قائلاً: اللهم اهزم العدو وانصرنا عليهم وأبلغني نبيك. فردد ألوف المسلمين آنذاك: آمين آمين لهذا الدعاء. فنظر نظرة وداع لأخيه في الله أنس بعيون تبرق كالبرق الخاطف لشدة فرحه وبهجته، فرمى الدرع ودخل صفوف العدو بسيفه المسلول، فهزم الله العدو

---

٦٤ الترمذي، المناقب ٥٤. ابن ماجة، الزهد،٤

وبدأوا بالفرار ونصر المسلمين عليهم. ولما عم الفرح المسلمين كان في أرض المعركة أسد هصور مضرج بالجروح يتملى المنظر الذي حدث بابتسامة رقيقة على شفتيه.. إنه آخر منظر الوداع من الدنيا.. كان هذا الأسد الجريح البراء بن مالك ينتظر استجابة الشطر الآخر من دعائه، بلوغه الرسول ﷺ.. وبعد قليل إلتقى الرسول ﷺ الذي أحبه أكثر من نفسه.

٥. الجهاد وسيلة لحاكمية الأرض

ان في يد المؤمن كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويهديه إلى سبيل الرشاد، فهو منبع عزّه وسؤدده. وأمامه القدوة الحسنة للبشرية جمعاء وهو سيد المرسلين ﷺ. فهو بهذا الكتاب المبين وبهذا الرسول الكريم، ذو حظ عظيم أكثر من أي أحد كان على الأرض قاطبة. ولهذا فهو المرشح الوحيد ليحكم الأرض كلها.

والقرآن الكريم يعلّم المؤمن هذا المفهوم، والله ﷻ ينتظر منه هذه النتيجة.

فالمؤمن هو الذي يردد دائماً: الله ربي، ومحمد نبيي والقرآن كتابي والجهاد في سبيل الله أسمى أمانيّ؛ لذا استقر في قرارة نفسه هذا المفهوم: إنني لابد وأن أجعل من أمة الإسلام عنصر توازن بين أمم الأرض جميعاً. فإن لم يؤخذ كلامي أساساً بين القرارات التي تُتّخذ بين طبقات البشر، تُرتكب إذاً مظالم شنيعة، ويُذلّ الأعزاء، ويُعزّ الأذلاء.. ولهذا فلا بد ان يكون القرار والحكم صادراً مني، وأكون أنا عنصر الموازنة. وعلى الدول ان تحدق في اجتماعاتها إلى إصبعي أنا حيثما أشير، وأن يُقَدّم كلامي على الكلمات التي تطلق هنا وهناك. ولا يُتخذ قرار إلاّ بعد أخذ رأيي في كل مسألة...

فإذا ما بلغ المؤمن هذا الشعور والمفهوم فلا تستغل أية قوة استعمارية المسلمين ، ولا يؤخذ ضدهم قرار الحصار. وهذا ما يريده ﷻ من المؤمن وهو

القائل: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾(الأنبياء: ١٠٥).

فالذكر يعني: النصيحة، أما هنا فيأتي بمعنى التوراة، أو اللوح المحفوظ في معنى أشمل. وعلى هذا المعنى يمكن أن توضح الآية الكريمة كالآتي: إن الله سبحانه بعد ما كتب في اللوح المحفوظ ما كتب، كتب في الكتب المرسلة إلى الأنبياء مستنسخات من اللوح المحفوظ وهي: إن عباد الله الصالحين يرثون الأرض، أي العباد الصالحون هم الوارثون الحقيقيون الدائمون في الأرض. أما حاكمية الآخرين للأرض فهي عابرة خاطفة؛ إذ الحاكمية الدائمة على الأرض بالتجدد المستمر، إنما هي حاكمية العباد الصالحين، وما يتشكل منهم من أمم صالحة ومجتمعات صالحة. ولقد تقرر هذا قانوناً في اللوح المحفوظ، وسجّل في الزبور نقلاً منه. نعم، إن الزبور غير المحرف الذي أُرسل إلى سيدنا داود عليه السلام فيه هذا القانون .

نعم، ربما تظهر نظم – مما لا يرضى به الله – في الشرق والغرب، ويظهر فراعنة ومتمردون في كل مكان ولكن لفترة معينة ولمدة عابرة. فهذا لا يخالف القانون المكتوب في اللوح المحفوظ وفي الزبور، والذي أخبر عنه القرآن الكريم. لأن الميراث المذكور هو الميراث الدائم والحاكمية المستمرة لمدة طويلة. أما ظهور حاكميات غير الصالحين مهلة قصيرة، فهو مبني على حكمة إلهية وهي إيقاظ المسلمين وتذكيرهم ليبادروا إلى الاتفاق فيما بينهم. وهذا قانون إلهي لا يقدر على تبديله أحدٌ قط.

فذوو الأخلاق الفاضلة في عصرهم أو من لهم نصيب وافر منها هم الذين يكونون حكاماً في الأرض. وجدير بالملاحظة أن المقصود بالأخلاق الفاضلة لا يعني التردد إلى المسجد أو ما شابه ذلك فحسب بل هو الاتصاف بأخلاق النبي ﷺ في كافة مرافق الحياة، وبهذه الأخلاق يدرك الإنسان معنى الأشياء والحوادث وعلاقة الإنسان بالكائنات، وفيها أيضاً المحافظة على التوازن التام بين سبر غور الأنفس والتفكر في سعة الآفاق.. وبمعنى أوسع من قدر على إدراك الخلود فهو الذي حقق الصلاح بمعناه الحقيقي.

ولا يمكن أن يحقق هذا المعنى الواسع للحاكمية، الذين يثيرون الإرهاب والفوضى في أنحاء العالم ويرتكبون الجرائم تلو الجرائم ويستغفلون الناس – ولاسيما الشباب – بمشاكل سياسية، ويختلقون شعارات سياسية لجذب الرأي العام، ويعتدون بعقولهم تاركين الشورى فيما بينهم.. هؤلاء لا يمكنهم قطعاً أن يؤسسوا هذه الحاكمية – بمعناها الحقيقي – وسيفيقون من غفلتهم يوماً من الأيام عند شروق شمس الإسلام، وعندها يندمون، حيث يدركون تخبطهم في ظلمات دامسة، فيعترفون بخطئهم.

نعم، إن الإنسان الذي خلق مكرماً سيجد الطريق السوي يوماً ما، إذ بخلافه يكون هذا القانون خطأ – والعياذ بالله – ومن المعلوم أن القانون لا يتبدل إذ: ﴿لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ (الروم: ٣٠) إلاّ أنه سبحانه له قانون آخر وهو ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١) فالله سبحانه لا يذلّ أمة عزيزة كانت تاجاً على الرؤوس إلاّ إذا غيرت الأمة ما في داخلها.

فهذا القانون سار في المعنى الإيجابي والسلبي على السواء. لذا ينبغي الحفاظ على النفس، والتعمق فيها، والسعي لإدراكها، فمن كان يريد إحراز لقب الفاتح فليفتح قلعة النفس أولاً، ومن استعصى عليه فتح الداخل لا يمكن أن يفتح شيئاً في الخارج.

ان بطرس الأكبر المعروف بجنونه، رسم للروس خطة مثالية، كانت خطته هذه موضع اهتمامهم دائماً، ويمكن ان نلخص قسماً منها بالآتي:

تجاوزوا حدود البلقان، أوقفوا توسع العثمانيين وقطعوا السبيل عليهم، بثوا الفتنة والشقاق في صفوفهم. انزلوا إلى البحار الساخنة.. استولوا على أفريقيا وممالك خليج البصرة.. لا تفسحوا المجال للأوروبيين أن يستغلوا العالم الإسلامي ضدكم حتى لو دخلتم معهم في مفاوضات..

تمضي الوصية هكذا عموماً، وأصبحت هذه الوصية إلى أيامنا الحاضرة غاية الروس وهدفهم، حتى في عهد الشيوعيين.

أما وصية الرسول الأعظم ﷺ للمؤمنين، فهي القيام بدعوة سامية ولغاية جليلة، تلك هي حاكمية الإسلام على الحياة كلها لضمان سيادة الدنيا والآخرة.

فامتثال هذه الأمانة المقدسة ونشرها في آفاق العالم اليوم دَين في أعناقنا. فالمؤمن يعيش طوال حياته لأجل الغاية وسينطلق لبلوغها إلى البحر الساخن والبحر البارد، وسيُشعر بقوته وحاكميته في كل بقعة من الأرض حتى لو كانت منجمدات سيبريا ومجاهل أمريكا الجنوبية وصحارى أمريكا الشمالية.

ذلك لأن الله ﷻ لا يقبل منه أن يظل تحت سيطرة الكفار ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ (النساء: ١٤١)، إذ لو رضي بها يعني ذلك أنه فقد كل ما يملكه من إسلام وإيمان. وعند ذلك لا حقّ له في الحياة. إذ تصبح حياته كلها ذلاً ومهانة وبؤساً وشقاء. وستكون آخرته كذلك خزياً وعاراً. ولهذا فان أقدس شعور يمتلكه المؤمن ويستحوذ عليه هو حاكميته على الأرض كافة.

ولقد كنا ردحاً من الزمن حكام الأرض، فما تحقق بالأمس يمكن أن يتحقق غداً، وما علينا إلاّ بذل الجهد والسعي المتواصل وحصر الهمة به، وفي الأقل نثير همة أولي العزم من الرجال لوضع أهداف من أجل تحقيق الحاكمية.

آ. الحاكمية عند سيدنا موسى عليه السلام ومن قبله.

لقد أظهر سيدنا موسى عليه السلام هذا الهدف، لبني إسرائيل المؤمنين به وهو المسؤول عن تربيتهم وتنشأتهم، ولكن لم تكن تلك الفئة أهلاً لهذا الهدف إذ كانت أعينهم لا تبصر وآذانهم في صمم عن الحقائق التي نبعت من تلك الروح السامية، وهو الرسول المشحون بتجليات ربه الجليل في طور سيناء. والقرآن الكريم يبين موقفهم هذا بالآية الكريمة:

﴿قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ (المائدة: ٢٤)

إن هذا الكلام كان يخاطب به نبي كريم من أولى العزم من الرسل. وبنو

إسرائيل قد نشأوا وترعرعوا بمفهوم الأرض الموعودة.. وقد حان الآن الوقت وسنحت لهم الفرصة فلو بذلوا شيئاً من الجهد والتضحية لبلغوا الهدف ولكنهم أخلدوا إلى الأرض، مآثروا الراحة والقعود. فلم تكن في نيتهم حتى التحرك من مواضعهم، ويتحاشون بذل أي جهد وجهاد. ولاشك أن لما يريدون نواله ثمن، ولكن عزّ عليهم دفع الثمن فما كانوا يتقربون منه هذا من قريب أو بعيد، ولهذا التجأ سيدنا موسى عليه السلام إلى ربه الجليل عاجزاً عن القيام بشيء ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة: ٢٥) وكأنه يقول: لقد ضجرت من هؤلاء وسئمت منهم فهم ذوو أرواح ميتة فاقدة لروح الجهاد، يفضلون الدعة والراحة، خائرو العزيمة والغيرة. فأدعو ملتجئاً إلى ربي: فَافْرُق بَيْنَنَا وَبَيْنَ القَوْمِ الفَاسِقِينَ. فجعلهم الله يتيهون في صحراء التيه أربعين سنة ضائعين حائرين.

وهكذا تجري دعوة الرسل الذين يأتون من بعد موسى عليه السلام على نفس الشاكلة فنبي الله يوشع قد مضى على المنوال نفسه في الجهاد. وسيدنا داود عليه السلام كذلك.

نعم إن داود عليه السلام الذي كان جندياً في جيش طالوت قد تصدى لجالوت، وقتله في ميدان الحرب. ولكن مع هذه النتائج كلها نرى أن الكثيرين من جنود طالوت يتخلفون في الطريق، ﴿قَالُوا لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ (البقرة:٢٤٩) ولا يبقى غير قلة من المؤمنين الذين قالوا: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٩) ينطلقون مندفعين

نحـو المـوت مسـتحقرين الحـياة الدنـيا، فصـدّقهم الله في دعواهـم ولم يكذبهـم وألحـق الهزيمة بجيش جالوت، فطردوا العمالقة من مواضعهم، وتحققت أمنية بني إسرائيل، وهي الدخول إلى البيت المقدس.

ب. مفهوم الحاكمية على الأرض لدى الأمة المحمدية وجغرافيتها.

لنلق نظرة على سيرة المصطفى ﷺ نراه قد أشعل في روح الصحابة الكرام رضـي الله عـنهم أجمعين نـور تلـك الغايـة المثـلى – الحاكمـية عـلى الأرض – والـتي أوردنـا أمثلة منها. وتسبق تلك الغاية، إقامة الحياة الشخصية على الحياة الدينية دومـاً، وقد حقق الله لهم هذا العزّ والظهور بفتحه أبواب العالم أمامهم. وفي الحقـيقة إن هـذه الغاية والهدف هو معنى رسالة الرسول الكريم ﷺ، فلقد بعثه الله بالقرآن الكريم ليظهره على الدين كله. كما تبينه الآية الكريمة :

﴿هُوَ الَّـذِي أَرْسَـلَ رَسُولَهُ بِـالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّـهِ وَكَفَـى بِـاللهِ شَـهِيداً ﴾ (الفتح: ٢٨) فلقـد وعـده الله سبحانه بفـتح مكـة – ولا يخلـف الله وعـده – و فُتحـت مكـة. ويفهـم مـن الآيـة الكـريمة أيضـا أن الله سبحانه سيفتح له العـالم كله، متى ما حان وقته. لأن ذلك ضمن وعد الله له أيضـا، إذ لا يكـون الدين عـلى الأرض إلاّ الإسـلام وحـده. ذلـك النظام الذي يسبغ على الإنسانية جمعاء السكينة والأمان والاستقرار.

نعـم إن الله ﷻ قـد أرسـل رسـوله بهـذا الديـن الـذي تتـنور الأرض بـنوره وتُعمّر الخرائب بهدايته.

فمن يوقد نار هذا التوق والاضطرام والوجد والشوق في وجدانه، يجعل الجهاد أسمى غاياته في الحياة وأعظمها بل يجعل الموت في هذه السبيل نعمة عظمى. ولا جرم إن لم يكن الفناء فلا بقاء. فالطريق الموصل إلى البقاء يمر من الفناء، والنهار يعقب الليل والربيع يعقب الشتاء، ومن ليس لهم ليل ولا شتاء في حياتهم إذن لا ربيع لهم ولا نهار.

نحن في انتظار أن ينشق النهار في أمتنا.. نعم تقيمون الليالي الطوال وتقتحمون المصاعب والعسير من الأمور، وتعبرون أنهار الدماء وتدعون وراءكم أمثال أحد من الجبال ثم تنعمون بفتح مكة والنصر في واقعة جالدران. ثم سيموت كل ذلك بعد شتاء قارس، بعد ليل بهيم، بعد اختلاج آلاف الأوجاع واجتراع آلاف الآلام. ولا جرم أن لكل ولادة مخاض، فالذين يريدون أن يذوقوا لذة الولادة عليهم أن يرضوا بآلام المخاض.

ان الله ﷻ قد وعد بظهور دينه، فالذين يحملون هذا الدين سيكونون أعزاء ظاهرين على الناس ما تمسكوا بدين الله، وسيظهر الله دينه حتماً، إن لم يكن في هذه الديار ففي ديار أخرى من العالم. لأن وعده قاطع لا ريب فيه. ولكنه متعلق بمدى ما تبذله الجماعة من الجهاد والعزم والثبات لتطهير الأرض من الفتن؛ بقول تعالى ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ﴾ (البقرة: ١٩٠) أي جاهدوا وقاتلوا حتى تُزال من فوق الأرض القلاقل والاضطرابات ويبلغ الإنسان إقليماً آمناً وسعادة دنيوية وأخروية معاً. بمعنى ان الجهاد لا يمكن تركه ما لم يعم الإسلام الأرض كلها، ولم تنعم البشرية بالأمن والأمان.

إن الرسول الكريم ﷺ قد أوقد هذا الشعور النوراني في روح الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين.

ولنلق نظرة إلى جغرافية الأرض المنورة بنور هذا المشعل الوضيء.

انه لم تمض على خلافة سيدنا عثمان ﷺ خمس سنوات إلاّ وقد خضع شمالي أفريقيا كله لحكم الإسلام. ومن الجهة الأخرى اجتاز جيش المسلمين بحر الخزر وفتحوا طبرستان وعقب ذلك فتح ما وراء النهر. أي أن الإسلام بلغ سدّ الصين، بمعنى أن الله ﷻ قد أنعم على مسلمي ذلك العصر دولة تسع خمسين مرة مساحة تركيا. ذلك لأنهم استحقروا هذه الحياة وابتسموا في وجه الموت. وانتم كذلك متى ما استحقرتم الحياة وضحيتم براحتكم وجعلتم الدين حياة لحياتكم وقلتم الموت خير لي ما دام الإسلام لم يحكم الحياة كلها، عندها سيتفضل الله ﷻ عليكم ويجعلكم حاكمين على الأرض. فالجماعة التي تكابد المشاق لأجل نصب الراية على قمم الأبراج وتعقد العزم على ذلك بنية خالصة لله، وأقرت على سطح الأرض حاكمية الإسلام اندفعت إلى السماء لنصب راية الإسلام هناك. فتكون إذن قد أحرزت عناية الله ولطفه، فيرزقها سبحانه حاكمية العالم.

نعم إن حاكمية العالم لا تتحقق إلاّ بعد استكمال هذه النفوس الربانية بناءها وبذل أرواحها ثمناً لها.

مكتسبات الجهاد

١. الجهاد ضمان الاستقرار الداخلي والخارجي

إن كل أمة تملك قوة معينة. فان لم تبذل تلك الأمة طاقاتها وقوتها تجاه العدو الخارجي وبلوغ حاكمية الأرض، تحدث الاضطرابات والقلاقل في الداخل. حتى تبدأ المشاحنات بين الأفراد أنفسهم مما يؤدي إلى إراقة الدماء في الشوارع وتشاهد مناظر الجنائز في كل زاوية. ولا تجد في هذه البلاد إلا الأرامل والثكلى اللائى يذرفن الدموع على فقدان أولادهن وأزواجهن. فلا أحد يأمن على حياته حيث الفوضى والإرهاب قد مد أيديها حتى إلى الأعراض والشرف.

والحال ان الأمة التي تقدّر لها أن تكون حاكمة على الأرض أو في الأقل تكون عنصر توازن فيها، فلا محل للفتن الداخلية فيها إطلاقاً. حيث لا تتوثق عرى المحبة بين الأفراد إلا بالاتفاق تجاه العدو الخارجي فهي من الوسائل التي تقلل المشاحنات الداخلية إلى الحد الأدنى.

ولابد أن نذكر هنا أمراً وهو: ان غايتنا وهدفنا الأساس ليس هو الحاكمية على الأرض لمجرد الحاكمية، ولاتحقيق الأمن والنظام في الداخل، بل هذه الأمور ثمرات ونتائج لغايتنا الأساس. أما غايتنا الأساس فهي إعلاء كلمة الله على الأرض قاطبة. ولاشك أنه لبلوغ هذه النتيجة من الضروري أن نكون أقوياء كأمة ونزيل الموانع والعوائق في سبيلنا. وفي الحقيقة يجب ألاّ نخلط هذين

الأمرين بعضه ببعض. نحن نريد القوة كي نستخدمها في سبيل إنفاذ أمر الله سبحانه وإلاّ فلم يخطر ولا يخطر ببال المسلم أن يحقق القوة لأجل الغلبة والظهور والتحكم والاستبداد.

إن أمة ترزخ تحت الذل والهوان لا يمكن بحال أن تتمثل الحقائق السامية، فكيف لها أن تعرض هذه الحقائق إلى غيرها؟ وأنّى لغيرها أن تتقبل منها وهي تعاني الذل والهوان. لذا ينبغي أن نثبت قوتنا وطاقتنا على أعلى مستوى في جميع مرافق الحياة الأساسية التي توقف الأمة على قدميها قوية عزيزة. فجيشنا لابد أن يزود بأحدث الأسلحة. ومرافق التربية والتعليم يجب أن تكون مهداً لأحدث الاكتشافات والعلوم. وقوى الأمن فينا يجب أن تكون لها من القوة ما يلقي الرعب في قلوب الإرهابيين والفوضويين في العالم كله حتى تستنجد بنا الدول الأخرى لدفع ما يعجزون عن دفعه من الفوضى والاضطرابات عندهم. وأن يبلغ اقتصادنا شأناً نوزع من فضائله هدايا ومنحاً للأمم. نعم فلأجل أن نكون أهلاً لتحقيق الحقائق السامية ونتمثلها حقاً ينبغي أن نكون حاكمين على الأرض وهذا شرط آخر لا يتحقق إلاّ بالجهاد.

إن المؤمن مضطر إلى دفع الظلم في اي مكان كان في العالم. لأن المؤمن عنصر توازن في العالم. ولهذا يبدأ بمحيطه اولاً ثم يجهد بحثاً عن وسائل لتوسيع هذه الدائرة، بهمة رفيعة عالية ترقب العالم كله من علوها، وتُخطط النظم والوسائل المتوافقة مع سموقها وشموها.

لاشك أن المؤمن رحيم على الخلق كريم بهم، وهذا هو السبب الذي

يجعله يضطرب قلقاً لإنقاذ الآخرين. حتى أنه يَحتمل في هذه السبيل كل أذى وجرح وإهانة، وهو سمح حليم. إلاّ أنه في الوقت نفسه كالطود الأشم أمام الفوضى والإرهاب حتى قد يضحي بنفسه في سبيل دفع آثارهما وتعدياتهما. والقرآن الكريم يثني على المؤمن بصفته هذه فيقول: ﴿أعِزّة عَلى الكَافرينَ﴾ (المائدة: ٥٤).

والمؤمن إذا اقتضى الأمر يجاهد جهاداً مادياً حفاظاً على شرفه وكرامته ويقف في صف أمن ونظام البلاد فيجاهد بنفسه وبأهله، شيخاً كان أو شاباً بل حتى بأطفاله إذا استوجب الأمر لحين تطهير البلاد من شبكة الفساد المنتشرة في أنحائها.

ذلك لأن المؤمن يعلم بفراسته الإيمانية أنه إذا أعطيت اقل فرصة للإرهاب الذي لا يعرف معنى للإنسانية والذي أحاط بالعالم كالحية الرقطاء فذلك يعني فتح باب في الغد إلى ما لا نهاية لها من التنازلات والمطاليب.

فالإرهابي الذي يبلغ مطلباً واحداً من مطاليبه مهما كان هيناً، لا يكتفي به قطعاً بل يسعى لأخذ مطاليب أخرى والإرغام على تنازلات أخرى، حيث التنازل يدعو إلى تنازل آخر وهكذا. فلئن وضع في يوم من الأيام شرفنا وأعراضنا ووطننا ككل بل كل مقدساتنا على مائدة المفاوضات فما ذلك إلاّ نتيجة أليمة – لكنها حقيقية – لهذا التنازل الذي أُعطي لأول مرة. ولهذا ينبغي للمؤمن أن يكون دقيقاً جداً في عدم التنازل منذ بداية الأمر ويكون حازماً صاحب قرار حاسم.

فلئن طالب الإرهابيون بغلق المحلات والدكاكين ليوم غد فالمؤمن يفتح محله منتظراً فيه حتى لو كان معذوراً – من جهة اخرى – لسد محله في ذلك اليوم. فهذا العمل يعدّ بالنسبة له أعظم جهاد لأنه يعني مجابهة الظلم فكأنه يبصق بوجه الظالم. وهذا في نظره باب يُفتح له للشهادة. لأن الرسول ﷺ قد قال: (من قُتل دون مَالِهِ فهوَ شَهيدٌ).[65]

وإذا ما أتى الإرهابي المسلح إلى باب دارك وطلب منك شيئاً ولو زهيداً جداً لابد أن تقاومه بعدم إعطائك شيئاً له، لأن تحقيق مطلبه الأول، يسوقه ليأتي في وقت آخر ويطلب أموراً أخرى وهكذا حتى لا يبقى لديك شيء وعند ذلك تندم أشد الندم لتفضيلك الحياة على الموت لدى تنازلك لأول مرة. فالعلاج الوحيد لهذا الأمر وللحيلولة دون السقوط في مثل هذا الذل بيدك أنت، إذ عليك أن تفضّل الموت الذي تحظى به بمرتبة الشهادة والسعادة الخالدة على بضعة أيام من الحياة الدنيا تقضيها في ذل وهوان.

إن أي نوع من أنواع الإرهاب والفوضى حالياً أجنبي المنشأ بلا شك، فهم يريدون أن يحوّلوا هذا الوطن الشبيه بالجنة إلى جحيم لا يطاق. ولا أسهل من إرغام دولة خارت قواها نتيجة الإرهاب والفوضى. وهذا ما يصبو إليه الأجانب. فهم يريدون أن تتحول هذه البلاد إلى مستعمرة يستغلونها. والإرهابيون والفوضويون جميعهم ما هم إلاّ عملاء أولئك المستعمرين. ولكن لن يصلوا إلى مبتغاهم – بإذن الله – وسيحيق المكر السيىء بأهله. وهنا أمر

---

٦٥ البخاري، المظالم ٣٣. مسلم، الإيمان ٢٢٦

مهم وهو أن الانشغال بالإرهابيين والفوضويين سيؤخرنا عن بلوغ ما نصبوا إليه من هدف. أليس هذا هو ما يريده أعداؤنا بالدرجة الثانية؟ إذ هم يخشون أن يصلب عود المسلمين يوماً من الأيام، فيصبحوا – أي الإرهابيين – كالحمر المستنفرة فرت من قسورة.

وهنا أمر لابد أن لا يُنسى أبداً وهو: أن المسلم إذا اقتضى الأمر يكون مع قوى الجيش والأمن للدولة تجاه اي نوع من أنواع الاعتداءات الخارجية أو الداخلية. فهذا واجب عليه. ولا يمكن أن يتصور تركه لهذا الواجب. ويكفي أن تدعوه الدولة وتكلّفه بوظيفة كهذه. ولاشك أنه سيؤدي هذه الوظيفة متممة لعمل الدولة، وبخلاف هذا فإن أية حركة فردية تؤدي حتماً إلى تهيئة إرهاب آخر. فعلى المؤمنين أن يكونوا دقيقين في هذا الأمر. إذ لا يملك الإرهاب والفوضى أي جانب شرعي، ولابد أن تُجتث جذورهما.

وأحياناً تقوم الدول بإحداث الفوضى والإرهاب، كما تفعله أمريكا وروسيا والصين... فالوظيفة التي تقع على عاتق المؤمن حينذاك أن يستعمل كل طاقاته وإمكاناته إلى أقصى حد ممكن ويجابه الفوضى والإرهاب المفتعل. وعندما يبلغ الأمر إلى هذا الحد فمعنى ذلك أن الدولة قد أصبحت تحت رحمة الأعداء. وعندئذ فالواجب قد أُلقي إذن على كاهل كل فرد. أي أن الأمة ستؤدي حينذاك ما عليها من واجب وتضيف بطولة على بطولاتها المذكورة في التاريخ. نسأل الله تعالى أن يبعد وطننا ومساكننا من مثل هذه المواقف. ولكن لو قدر الله ذلك فما لنا من محيص غير هذا العمل. فالمؤمن دائماً هو من

يفضل الموت عزيزاً على الحياة ذليلاً. فلا يخيفه الموت. وعلى القوى الخارجية والدول التي تزود الإرهاب وتثير الفوضى أن تعلم هذا جيداً.

فالهروب من الجهاد وترك البلاد والمساكن تحت رحمة الأعداء صفة ذميمة لا ترد حتى إلى رؤيا المؤمن، فضلاً عن أنها دناءة وحقارة ينأى عنها المؤمن ويتجنبها.

والقرآن الكريم يعلّم المؤمن طريق العزّ وما يجب عليه عندما يئن الضعفاء والمساكين من الرجال والنساء تحت الظلم والتعذيب وليس لهم طريق الخلاص إلاّ الدعاء.

تقول الآية الكريمة: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً ﴾(النساء: ٧٥) يا له من دعاء!! دعاء كي يخرجوا من ديارهم ومآويهم، ذلك لأن المسلمين أُستضعفوا في تلك الديار. لقد انقطعت قوة الحق، ولكن الوطن هو وطنهم لا لغيرهم، وما فيه من مساكن ومآوى هي مساكنهم ومآويهم، على الرغم من هذا يريدون الخروج منها. لئلا يعانوا هذا الذلّ والمسكنة، وهذا الخضوع والخنوع. ذلك لأنهم حرموا من أبسط حقوق الإنسان، أولئك الذين أُغتصبت جميع أموالهم بل كل ما يملكون. أولئك الذين ديست مقدساتهم بما فيها حرياتهم. وحيث أن المنظر يبين لنا هذا الوضع المفجع، يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ في سَبيلِ اللهِ﴾ بحيث يهز المؤمن المخاطب هزاً عنيفاً حيث تنزل عليه الآية الكريمة بالتقريع والتوبيخ تلو التقريع و التوبيخ.

إننا لم نقدر الحق حق قدره ولم نقدر على استجابة القرآن الكريم، ولم نصرف كل طاقاتنا في سبيل رفع رايته في جميع أنحاء العالم. لذا قُطِّعنا أوصالاً، تفرقنا شذر مذر. وحيث أن وضعنا هو هذا المنظر الأليم، والأعداء يتكالبون علينا، ونحن نكتفي بالتفرج عليهم كيف يلتهموننا قطعة إثر قطعة دون أن نتدخل بشيء. ونقول – آسفين – أن العالم الإسلامي بأكمله يعاني هذا الوضع الذليل المهان، وكأن الحلول انتهت وفقدت كلياً، فبقينا وحدنا بدون حل للموقف. كلا.. ثم كلا.. فإن أحاط الظلام بالمؤمن من يمينه وشماله ومن أمامه وخلفه فعليه أن يوجد نوراً لإضاءة تلك الجهات الأربع.

وعليه أن يوثق صلته بالله تعالى ويرتبط مع رسول الله ﷺ فيوجد من الأنوار ما ينير العالم أجمع ثم يهرع إلى عالمه الخاص فينيره أيضاً.

فليس للمؤمن غير ما سعى وغير ما بذله بنفسه. انه يحصل على كل شيء بعرق جبينه وبجهده وبمقاساته ومكابداته. ثم يتبنى قضيته بنفسه وفي النتيجة يكون قد أنقذ نفسه وأنقذ الإنسانية جمعاء.

فسواء أكانت القلاقل والاضطرابات ناشئة من الفساد الداخلي، أم من الأزمات الناجمة من الإرهاب والفوضى، أم من الضيق والقلق الذي يولده الاعتداء من الخارج، أم من أي من الآلام التي تصيب المسلمين.. هذه البلايا وغيرها لا حل لها إلاّ بالجهاد المادي والمعنوي.

والخلاصة أن الجهاد هو ضمان استقرارنا الداخلي والخارجي. فالدنيا التي لا جهاد فيها بلا ضمان ولا أمان.

٢. الجهاد يحول دون الذل و الهوان

المؤمن إنما يعزّ بما يقدمه من جهاد داخلي وخارجي. وحينما يترك ما يترتب عليه من واجب، وتستهويه لذائذ الحياة وينحصر همّه في أذواقه الشخصية، يفقد المهابة والعزة، ويذل ويهان. فالرسول الكريم ﷺ يقول: (..وتَرَكْتُمُ الجِهَادَ سَلَّط اللهُ علَيْكُم ذُلاً لاَ ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم).[٦٦]

وهذا يعني أن الحياة العزيزة إنما هي في تحمل بعض المشقات باسم الجهاد. والأمة عموماً تستحق هذه الحياة العزيزة عندما تقاوم وتثبت تجاه تلك المشقات. فلو ترك كل فرد منها الجهاد منغمساً في لذائذ حياته الشخصية عندئذ يحل العذاب الإلهي العام عليها فيصيب الظالم والمظلوم والبريء والمذنب. ولهذا لابد للأمة من التمسك بالجهاد ككل، كي تحول دون نزول البلاء عليها جميعاً.

وأريد أن أبين هنا حديثاً شريفاً عن سيد الكونين ﷺ وهو:

(إذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَأخَذْتُمْ أذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلاً لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إلى دِينِكُمْ)[٦٧]

وقد فسّر (العينة) بالبيع و بشكلين:

---

٦٦ أبو داود، البيوع ٥٤. المسند، ٤٢/٢.

٦٧ أبو داود، البيوع ٥٤ المسند ٤٢/٢.

أولهما: هو شراء بضاعة من أحدهم ديناً، وبعد ذلك بيع البضاعة نفسها بثمن أقل إلى صاحبها الأول نقداً. والغاية من هذا البيع هي: ان الشخص محتاج إلى نقود، وحيث أن أخذ النقود ودفعها بزيادة هو ربا. فيتوسل بالعينة لئلا يكون رباً واضحاً. ويمكن أن نوضح ذلك بمثال: لنفرض أن أحدهم بحاجة إلى ثمانمائة ألف ليرة، فيبتاع بضاعة من شخص بمبلغ مليون ليرة ديناً، ثم يبيع البضاعة نفسها إلى الشخص نفسه بقيمة ثمانمائة ليرة نقداً. فالظاهر عملية بيع وشراء الاّ أنها عملية لا تفترق عن الربا، فلا تجوز قطعاً.

أما ما قبله أغلب الفقهاء من التفسير الثاني (للعينة) فهو:

ان العينة عبارة عن تطبيق للبيع المؤجل. مثال ذلك: يأتي المُدان إلى المدين ويبلّغه انه لايتمكن من دفع الدين لهذا الشهر. فيضاف مباشرة فرق الأجل إلى دينه.

فالرسول ﷺ يشير في هذا الحديث بتفسيريه معاً إلى سوء الاستعمالات في الأمور التجارية، ويقول متى ما استولت عليكم سوء الاستعمالات هذه فانتظروا الذل والخنوع.

أما الشطر الآخر من الحديث الشريف (وأخَذْتُمْ أذْنَابَ البَقَر ورَضِيتُمْ بالزَّرْعِ) فلا شك أن النقد الموجّه ليس إلى الزراعة، لأن الرسول الكريم يقول في حديث آخر (إنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أحَدِكُمْ فَسِيْلَةٌ فَإن استَطَاعَ أنْ لاَ يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ)[٦٨] وكذلك هو القائل (مَنْ أحْيَا أرْضاً ميتَةً فَهِيَ لَهُ).[٦٩]

---

٦٨ المسند، ٣/١٩١

٦٩ البخاري، الحرث ١٥. أبو داود، الأمارة، ٣٧.

بمعنى أن الإسلام لا يطيق صبراً على أرض ميتة. فلابد أن تستغل وتحيا. أي أن الحديث الشريف يلوم اختلال التوازن. لأن شريان الحياة الاقتصادية هو الإنتاج، فإذا ما حُصر الإنتاج على الزراعة وحدها وأُهملت التجارة والصناعة، معنى ذلك حدوث الخلل في الإنتاج. وإن التصور بحصول التقدم بالتوجه إلى الصناعة وحدها أو إلى التجارة وحدها ليس إلا تعبيراً عن الخلل نفسه. ولهذا فالأمر الأساس هو إعطاء كل ساحة ما يستحق من الاهتمام وبذلك يضمن التوازن في الإنتاج.

ومن المعلوم أن الزراعة تكون في القرى، فأهل القرى إذا توجهوا جميعهم إلى الزراعة يعني ذلك توقف تقدم المدن كلياً. وتوقف التوسع في المدن يؤدي حتماً إلى موت التجارة والصناعة. ونقيض هذا هو زحف أهل القرى جميعهم – تاركين مزارعهم – إلى المدن الكبيرة والذي يولد خللاً آخر. وما نراه في وقتنا الحاضر من توسع المدن الكبيرة بسرعة هائلة وحدوث مشاكل متناسبة مع تلك السرعة، وإخفاق الخدمات سواءً تحت الأرض أو فوقها وانتشار العطالة إلى أقصى حد.. كل ذلك ما هو إلاّ بضع أعراض للخلل.

انه لا مفر من أن نكون تحت رحمة أعدائنا دائماً إن كانت النهضة والتقدم غير متوازنين وظل قسم من الحياة الاقتصادية مرتبطاً بالخارج. حيث أن المؤسسات الصناعية المرتبطة بالخارج، والأمتعة التجارية المرتبطة بالخارج، والمنتجات الزراعية المرتبطة بالخارج.. كل ذلك عناصر تهديد للحياة الاقتصادية. معنى ذلك أن الأصل هو إحداث التوازن في جميع الميادين.

وحيث أنه لم تحدث في عهد الرسول ﷺ مشاكل الهجرة إلى المدن بسرعة، لذا أشار الحديث إلى الخلل الاقتصادي بحصر النظر في الزراعة فحسب. أما في وقتنا الحاضر فقد جلبت الهجرة إلى المدن بكثرة و بسرعة بمشاكل وأزمات حديثة. لذا فإن فكرة العودة إلى القرى أو الاستقرار والإسكان فيها إحدى الحلول التي تفرض نفسها، وهو المفهوم من الحديث الشريف.

من جهة أخرى فالحديث ينطوي على انتقاد الرجوع إلى البداوة أو الإصرار في البقاء على البداوة، بعد التحضر. فهذا كله يورث المجتمع الذل والهوان.

أما الأمر الثالث الذي يفهم من الحديث الشريف وهو (وتركتم الجهاد) اي عندما تنغمسون في أموركم الخاصة وتخلدون إلى الراحة، فإن الذل والهوان ينتظركم. أي كما إذا اسودّ وأظلم هواؤكم المادي، فهواؤكم المعنوي أيضاً سيسودّ، وتنكدر النجوم في سماء روحكم، وينخسف قمركم وتنكسف شمسكم. أي لا تسمح لكم الشريعة الفطرية العيش على وجه الأرض.

فالله سبحانه وتعالى لا يرفع ذلك الهوان منكم مهما حاولتم في دفعه ومهما توسلتم وتضرعتم اليه ما لم ترجعوا إلى الدين.

ترى كيف يكون الرجوع إلى الدين لأمثال هؤلاء؟ إن علينا وعلى كاهلنا في الوقت الحاضر حقوقاً هائلة تراكمت منذ عصور. فنحن في هذا العصر لم نوف حقوق أنفسنا بعدُ ناهيك عن الحقوق الأخرى. وكذا لم تتحقق في هذا الوقت ما ينتظره منا أهلنا وأمتنا وجيلنا من أمور. فلقد تراكمت على ظهورنا

الضعيفة آثامٌ كثيرة وكثيرة جداً. فالمسلم المدرك في القرن العشرين ينسحق تحت هذه الآثام. نعم إنها ليست مسألة هينة، بل عسيرة و جادة. لأن في آذاننا صرخات انهيار منذ ثلاثة قرون، فلن تهدأ هذه الصرخات بمعاناة ربع قرن فحسب. ولاشك أن المسؤول الأول في تردينا إلى هذا الوضع هو أنفسنا نحن. فلا نجاة إلاّ بأنفسنا كذلك. فسوف نضغط على أنفسنا، ونضرم مشاعلنا بأيدينا ونتوجه إلى عناية الله، ونحقق هذا التوجه قولاً وفعلاً، فبمقدار قيامنا بهذا العمل تفتح أبواب الرحمة، فتنتشلنا يد الرحمة مما نحن فيه من وضع أليم ونصل بإذن الله إلى ساحل السلامة.

آ) ممن اقتحموا العقبة..

كان الرسول الكريم ﷺ يجاهد العالم أجمع بجماعة، و أن كل فرد من تلك الجماعة كان يعلم جيداً ما يترتب عليه من واجب في أي صفحة من صفحات الحياة. فـ(أُحد) موقع تجلت فيه مناظر خالدة من هذا الشعور فلقد بذلوا جميعاً من حق وواجب رجالاً ونساءً صغاراً وكباراً شيباً وشباباً، وبكل إخلاص وتفانٍ، حتى تبدل الموقف لصالح المسلمين.

يذكر أنس ﷺ: إثنتان لم تغادرا نظري. الأولى: والدتي (أم سُليم). والأخرى: أمنا عائشة، كانتا تسرعان إلى المدينة فتأتيان بالماء إلى الجيش فترويان به.

وما إن تنتهيا من ذلك حتى تساعدان في ضماد الجرحى، وهكذا لم تفارقا هذا العمل طوال اليوم.

وفي هذه الأثناء جاءت عجوز، حتى يمكن أن يقال أنها مقعدة لا طاقة لها على العمل. أتت وهي تمسك يد طفلها إلى النبي ﷺ. فما كانت تقدر على ضماد الجرحى ولا غيرها من أعمال الحرب، وإنْ كانت على شعور تام بما عليها من واجب. فكانت تريد أن تشارك في (أُحد) بالقدر الذي يتيسر لها وبأفضل وجه.

فلكَم يستحق هذا المنظر الجميل التأمل في وجه هذا الطفل والعجوز وشوقهما لخدمة الحق! إن السيف المعلق في كتف الطفل يكاد يلامس الأرض. إن جسمه صغير كاد ألاّ يحمل السيف بخلاف روحه التي تناطح السماء. قالت العجوز لرسول الله ﷺ: ليس لي ما أعطيه ولا طاقة لي بعمل. ولكن هذا ابني، أهبه لكم، كي يحارب ويدافع عنكم. فنظر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الطفل الذي تبرق عينه منتظراً الجواب منه. فكأنه يقول بنظراته الثاقبة: إئذن لي يا رسول الله أن أفديك بروحي. فالذي يطلب هذا الطلب النابع من صميم القلب، لا يمكن أن يُرفض. لذا قبل الرسول ﷺ طلب هذا الطفل وضمّه إلى صفوف جيش المسلمين. فاقتحم الطفل بسيفه الذي هو أطول منه صفوف العدو، وكأنه قد كبر حالاً وتحول إلى شاب يافع. بيد أن (أُحد) كان ثقيلاً جداً، فما كان يتحمله إلاّ أمثال حمزة، وابن جحش، ومصعب.. إلا أن الطفل أيضاً قد أخذ على كاهله جزءاً من هذا الحمل الثقيل. ولكن هذا الجسد النحيف لم يتحمل ذلك الحمل الثقيل، فوقع على الأرض بضربات العدو – وبعد قليل سيتسابق مع الملائكة في طريقه إلى الله –

فاحتضنوا هذا الطفل وحملوه إلى الرسول الكريم ﷺ كان قلبه يخفق خفقان قلب الطير. ووجهه يشعّ بابتسامة وبهجة والفرح يطفح من عينيه. لأنه سيلقى نفسه بأحضان الشهادة وسيغادر رياض (أُحد) التي تلتهب ناراً إلى سفوح الجنة.

قال الرسول ﷺ وهو يحدق بنظره الشريف في عيون الطفل التي تلمع فرحاً سروراً: أ تشعر بألم. والطفل يخشى أن يؤلم الرسول ﷺ فقال: لا يا رسول الله. وكأن الشمس الحزينة التي أوشكت على الغروب على (أُحد) تتهيأ للشروق مرة أخرى في وجه الطفل.[٧٠]

"وقاتلت أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية يوم أحد، فذكر سعيد ابن أبي زيد الأنصاري أن أم سعد بنت سعد بن الربيع كانت تقول دخلت على أم عمارة فقلت لها يا خالة أخبريني خبرك. فقالت: خرجت أول النهار أنظر ما يصنع الناس ومعي سقاء فيه ماء فانتهيت إلى رسول الله وهو في أصحابه، والدولة والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله فقمت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف وأرمي عن القوس حتى خلصت الجراح الي. قالت: فرأيت على عاتقها جرحا أجوف له غور فقلت لها من أصابك بهذا؟ قالت ابن قمئة أقمأه الله، لما ولى الناس عن رسول الله أقبل يقول دلوني على محمد، لا نجوت ان نجا. فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله فضربني هذه الضربة ولقد ضربته على ذلك ضربات ولكن عدو الله كانت عليه درعان".[٧١]

---

٧٠ ابن أبي شيبة، المصنف ٣٧٠/٧-٣٧١. يوسف الكاندهلوي، حياة الصحابة ٥٩٨/١-٥٩٩.
٧١ ابن هشام، السيرة ٨٦/٣-٨٧. ابن كثير، البداية والنهاية ٣٥/٤.

استمرت المعارك إلى المساء. كان من الضروري الحفاظ على المدينة من الداخل. وكانت صفية كبرى عمات رسول الله ﷺ في المدينة، فانطلقت إلى (أُحد) حالما سمعت بإصابة الرسول ﷺ بالجراح. كانت ترمى نفسها كأم عمارة على المصيبة مخترقة صفوف العدو بعدما أخذت رمحاً من الأرض. لم يتحمل الرسول ﷺ هذا الموقف، فقال لابنها: "انطلق إلى أمك.. فهي إمرأة". قاله باضطرار، حيث كانت تدفع الكفار من أمامها وتجعلهم يولّون الأدبار..."[٧٢] بمعنى: أنه إذا اشتد الأمر فالمرأة كذلك تنهض بواجبها.

نعم، إن المؤمن سينطلق إلى الجهاد تجاه المصائب المقبلة سواء من الخارج أو من الداخل، ويوفى مسؤوليته حقها تجاه أهله ودينه ووطنه وأمته. ولابد من جهاد بالنساء والأطفال والرجال والشباب والشيوخ فلا تبذل الجهود منحصراً في شرائح معينة من الحياة، بل في كل صفحة من صفحات الحياة..وبكل مستويات المجتمع.. إذ بخلاف هذا فالهزيمة محققة مقدّرة لا محالة. فكما يحتضن المؤمن الحياة كلها، فالجهاد أيضاً معنى شامل كهذا يحتضن الحياة كلها.

ب) من اجل حياة عزيزة..

إن طريق الحياة العزيزة تمرّ من معرفة ما هو جدير بالموت. نعم، الموت في سبيل ما يستحق من لأجله الموت. فإذا ما استسهلنا الموت في سبيل ما نحن مكلفون بالحفاظ عليه من أمورنا المقدسة، أو إذا استعددنا للموت في سبيلها سنذوق لذائذ الحياة الأبدية ولّما نغادر هذه الحياة الدنيا، فضلاً عمّا أُعدّ لنا في

---

٧٢ الكاندهلوى، حياة الصحابة ٢/٨٨، ابن حجر، الإصابة ٤/٣٤٩

الآخرة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فالرسول ﷺ يستثير عشقنا للجهاد ويقوى من عزيمتنا في حديثه الشريف الآتي.

(ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية، ولوَدِدْتُ أني أُقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أُقتل ثم أُحيا ثم أُقتل ثم أُحيا).[٧٣]

فيا لها من مرتبة عظيمة وشرف رفيع سام، الموت في سبيل الله والجهاد في سبيله، وما أعظمه من وظيفة مقدسة جليلة حتى يرغب سيدُ المرسلين وسيد الكونين والثقلين، وهو في ذروة الكمالات في أن يكون مع كل سرية في سبيل الله، علاوة على مهمة الرسالة العظمى التي يؤديها. ويتمنى ان يُقتل في هذه السبيل ثم يُحيا ثم يُقتل ثم يُحيا ثم يُقتل ثم يُحيا. فما أضيع إذن تلك الحياة التي لا جهاد فيها! وفيه هذا الشرف العظيم، الذي يطلبه ويحرص عليه كل ذي لب لا محالة.

فالأحاديث الواردة في الجهاد تلفت النظر حقاً، نذكر منها:

(من مات ولم يغزُ ولم يحدّث به نفسَه مات على شعبة من نفاق)[٧٤]. أي أن هذا الإنسان يسلّم روحه في وسط النفاق.

وفي رواية أخرى: (من لقي الله بغير أثرٍ من جهاد لقي الله وفيه ثلْمة)[٧٥] أي إن مثل هذا يأتي إلى المحكمة الكبرى محمرّ وجهه من نقص يُخجله ويخزيه.

---

٧٣ مسلم، الأمارة ٢٨، البخارى، الإيمان ٢٦، النسائي ، الجهاد ٣.
٧٤ مسلم، الأمارة. ١٥٧، أبو داود. الجهاد ١٧، النسائي، الجهاد، ٢
٧٥ الترمذي، فضائل الجهاد، ٢٦. ابن ماجه، الجهاد، ٥.

ان بين أيدينا وأيماننا وشمائلنا الكثيرين جداً من المظلومين المعتدى عليهم الذين يئنون تحت الظلم ويكابدون العذاب. و مثلما يجب ان نسعى لإنقاذ المظلومين هؤلاء كذلك من واجبنا أيضاً كفّ الظالم عن ظلمه. وإلاّ نلقى رب العالمين ونجازى بما يفوق كل الآلام التي نراها في الدنيا. فأية شقاوة أكثر من لقاء رب العالمين بهذا الخزي والعار.

وفي حديث آخر للرسول الكريم ﷺ يذكر فيه ما يصيب الأمة من بلايا حتى يسأل الصحابي كل مرة: وهل هذا حادث يا رسول الله ؟

يسأله وهو متعجب مما سيقع. ويجيبه الرسول الكريم ﷺ: بل يحدث أشد من ذلك...

(عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ كيف بكم أيها الناس إذا طغى نساؤكم وفسق فتيانكم قالوا يا رسول الله إن هذا لكائن؟ قال: نعم وأشد منه. كيف بكم إذا تركتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قالوا: يا رسول الله إن هذا لكائن؟ قال: نعم وأشد منه كيف بكم إذا رأيتم المنكر معروفا والمعروف منكرا).[٧٦]

وهكذا تتبين أهمية ما نحمله من أمانة وتكليف. إن أعماق قلوبنا وأشد مواقعها شعوراً ورقة ترزخ تحت أثقال ذنوب وخطايا تراكمت منذ ثلاثة قرون مضت بل تئن أنيناً من آلامها. ولا دواء لدائنا الاّ بمكابدة دائنا لا غير.

ان الذهاب إلى الجامع لأداء الصلوات أحياناً وأداء فريضة الحج منابع

---

٧٦ أبو يعلى ، المسند ١١/٤/١٣٠؛ الهيثمي مجمع الزوائد ٧/٢٨٠ - ٢٨١ .

طمأنينة لبعضنا. والحال إن ما نحن فيه من فظاعة الموقف لا يزيلها إيفاء تلك الفرائض وحدها. ولا أظن أن لنا حلاً لما حلّ بنا من وضع مخيف إلاّ بإيفاء وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بكل وسائلها وتشكيلاتها. ولا شك أن إيفاء هذه الوظيفة السامية موكل إلينا نحن أيضاً، نعم نحن فرداً فرداً، وإلاّ لا ننجو من مغبة السقوط في الهاوية التي وصفها الحديث الشريف، وأعلمه رب العالمين بالقَسَم في نهايته، وكأنه وصف لأوضاع مجتمعنا الحاضر.

عوائق الجهاد

١. لا انسجام بين الجهاد والدعة

ان الـذي يعيق الإنسـان عـن مهمـة الجهـاد هـو الـركون إلى الحـياة والافتـتان بلذائذهـا. فـالذي لا يستطيع تـرك راحته ولا يضـحي بحظوظه الشخصية وأذاوقه الذاتية، لا يُنتظر منه مهمة جليلة كالجهاد، بل من العبث الانتظار. ذلك لأن المهام الجليلة لا ينهض بها إلاّ من يُضحي بمطامعه الشخصية وأذواقه المادية والمعنوية.

ان عشاق الجهاد يرغبون في العودة إلى صفوف الإنسانية ليسعدوهم بإدامة الجهـاد حتى عـندما تتفتح لهـم أبواب الجـنة عـلى مصاريعها وتستقبلهم الحور العين ويستقبلهم الولـدان المخلـدون كاللؤلؤ المنثور.. هؤلاء العشاق هم الذين ينجزون المهام الجسام.

أعرض لكم هذه المسألة بجهتها الناظرة إلى الدنيا:

تصـوروا مجـاهداً يُسّـر لـه الصعود إلى مقـام عضوية البرلمان أو عُرض عليه ليكون رئيساً للوزراء أو رئيساً للجمهورية. فهو يفضّل – حتى في هذا الموقف – أبسـط خدمـة تتعلق بمهمـة الجهـاد المقدسـة عـلى تلـك العـروض. إننا ننتظر ونترقـب هـذا الإنسـان مـنذ سنين طـوال. هـذا الإنسـان الـذي استوعب روح الجهاد وأشبع بعشق النضال والكفاح.

أمـا الـذي لا يستطيع أن يضـحي بأحاسيسـه المادية وفيوضاته المعنوية ، ولم يعقـد العزم مـن أول الطريق، فـلا نأمل منه شيئاً، بل نقلق ونخشى من عواقب المشـكلات الـتي ستأتينا مـنه حالمـا يظهـر في السـاحة. إن مـن لم يـترك دنـياه

وعقباه، ولم يترك حتى التفكير في هذا الترك، ولا يرى جميع لذاته وأذواقه فيما يجاهد في سبيله في عشق مطلق ولذة مطلقة، ولا يجد لذته في سعيه بالذات، ولا يستطيع القول: "ما أطيب الموت في سبيلك يا الهي"... لا نثق بجهاده ولن نثق ولا نرى أن جهاده يكون مثمراً ولا يكون في سبيل الإسلام وإنقاذ الأمة. بل نثق بكفاح وجهاد الذين يدعون متعهم الشخصية وحظوظهم النفسانية، و يتركون حتى مساكنهم وبلادهم دون أن يعقبوا على شئ كما فعله الصحابة الكرام، أولئك الذين استعلوا على شهواتهم وملذاتهم المادية. فهؤلاء هم الذين ننتظرهم منذ مدة ونأمل منهم الجهاد، ونعدّهم من أسباب العناية الإلهية.

ومقابل ما ننتظره ونأمله، ينبغي أن يكون ما يعمله إنسان اليوم باسم الجهاد والكفاح على النمط نفسه ومتوجهاً إلى الوجهة نفسها. أي يجب ان يجاهد وفق هذا المفهوم، وفي الحقيقة ان القرآن الكريم يذكّرنا دوماً بهذا النمط من الجهاد اذ يقول الله تبارك وتعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ۞ إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التوبة: ٣٨-٣٩).

أي أفيقوا وبلّغوا كلمة الحق، ودعوا جانباً متع الحياة الدنيا وشهواتها الحيوانية والجسدية، في سبيل إعلاء كلمة الله في الآفاق فما لكم تتثاقلون إلى الأرض ولا تنفكون عنها وعن مطامعكم الشخصية وترضون بهذه الحياة

الدنيا وتنبهرون امامها. أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة؟ أوَ أشفقتم على الحياة الدنيا التي لا تغني شيئاً. سيزول ويأفل كل ما حولكم من شباب وصحة ومال وثروات، فليس في وسعكم الاحتفاظ بها، وستنطلق الحسرات والزفرات من أرواحكم وانتم تتباعدون عنها. والحال تنتظركم العقبى وديار الأبدية والخلود فلا زوال لنعيمها ولا نفاد للذائذها وفوق ذلك مشاهدة جمال رب العالمين في كل أسبوع.. فبينما الأمر هكذا، أ فَرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة؟

وهناك آية أخرى تشير إلى ان الدعة تعيق الجهاد .

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (التوبة: ٤٢).

بمعنى أن لو كان ما يدعون إليه فيه ما ينتفعون به من غنيمة قريبة، ومن سفر قريب فيه الراحة والدعة، لاتبعوك ولجاءوا معك دون شك ولا شبهة. ولكن الأمر خلاف هواهم ورغباتهم. فلا منافع مادية قط فيما يقصدون اليه، ولا مناصب ولا جاه يغنمونها من هناك، فضلا عن ان الطريق طويل جدا. لذا سيفترق المؤمن عن المنافق هنا افتراقا تاماً. وبينما المؤمنون يتبعونك من دون تردد يسعى المنافقون ليجدوا طرق الهروب ووسائل التخلف، ولا يجدونها إلاّ في الكذب، وبهذا يهلكون أنفسهم. حيث لا عائق أمامهم عن الجهاد كما يعلمه و يصدقه وجدانهم. والأعذار التي ساقوها ما هي إلاّ لخداع أنفسهم. ولهذا يظل وجدانهم في قلق واضطراب. وقريب هلاك من لا راحة لوجدانه.

ان معرفة الجو الذي كان يسود المدينة المنورة قبل "تبوك" لها أهميتها لمعرفة أبعاد المسألة. ولهذا سنبحث باختصار عن ذلك الجو:

رجع المؤمنون تواً من سفر، وكانوا بحاجة إلى أخذ قسط من الراحة للتأهب لسفر جديد. وقد حان وقت حصاد الثمار. والجو شديد الحر. في هذا الوقت بالذات دعا الرسول ﷺ المؤمنين إلى السفر.

استجاب المؤمنون بما لديهم من غال ونفيس لهذه الدعوة. فأتى سيدنا أبو بكر بكل ماله إلى الرسول ﷺ. وخص سيدنا عمر الفاروق نصف ماله لهذا الغرض. وما بذله سيدنا عثمان لا حد له. أما سيدنا علي فقد أعطى قسماً من ماله سراً وآخر علانية وفق إدراكه الخاص للإخلاص. ودفع سائر المؤمنين ما يملكون كل حسب استطاعته. فدخل الجميع في سباق للبذل والإنفاق والمنافسة في الخير بآخر ما يملكونه. والنساء اشتركن ايضا في هذه المسابقة للخير حتى امتلأت حجرة أمّنا عائشة رضي الله عنها بحاجات نسائية. إذ قدّمن ما يملكن من حليّ. فمنهن من نزعن قلادتهن وأسوارهن وأقراطهن وقدمنها لهذا الخير العظيم. وهكذا كانت إجابة المؤمنين لدعوة الرسول الكريم ﷺ.

أما المنافقون فكانوا يشترطون لإجابة دعوة الرسول ﷺ بألاّ يكون السفر طويلا ولا الجو حاراً، ولا يكون في موسم الحصاد.

ومنهم من يأتي باقتراح آخر فيستأذن الرسول ﷺ، وكان "جَدّ بن قيس" من هؤلاء، و كان يسرع إلى الصلاة بمجرد سماعه الأذان، ولكنه لم يتمكن من غرز الإيمان في أعماق القلب، وتحويله إلى إذعان، ولم يترفع عن أهواء

نفسه. فعجز عن أن يعزم الانخراط مع المضحين... أتى إلى الرسول الكريم ﷺ وكان الرسول يعالج فرسه بيده الشريفة، وعندما شاهد قيساً قال: حتى أنت لا تأت معنا؟ إذ لم يكن ممن يُنتظر منهم التخلف. ولكنه لا يأتي بل يحال دونه. فلا يمنحه الله هذا الشرف العظيم، كان وقحا قليل الحياء فتقدم إلى الرسول الكريم ليستأذنه قائلا: "يا رسول الله، أوَ تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن". والقرآن الكريم يوضح أمره هذا بالآية الكريمة الآتية ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (التوبة: ٤٩).

وجاء آخرون ﴿وَقَالُوا لاَ تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ فكان جواب الرسول ﷺ هو جواب القرآن ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾(التوبة: ٨١) فالذين قاسوا المشقات وتجشموا الصعاب وتجرعوا الآلام هنا سيكونون في مأمن عن النار هناك. أما الذين أمضوا حياتهم في الملذات واستمتعوا بها سيعرضون على النار هناك ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ (الأحقاف: ٢٠)

نعم، القرآن الكريم يستنفر المؤمنين جميعا للجهاد، وسنكون من الفائزين أو الخاسرين حسب استجابتنا لهذه الدعوة. فإما نقول: عسير علينا ترك لذائذ هذه الحياة كما قاله المنافقون. أو نعمل بمثل عمل الصحابة الكرام الغر الميامين فنأتي بما لدينا ونتأهب للجهاد.

أمثلة من الرسول الكريم ﷺ وصحبه الأطهار

حول ترك الدعة والراحة

لأجل الفوز بالدنيا والعقبى يترك الرسول الكريم ﷺ بيته وبيت الله الم
الكعبة الشريفة مركز الأرض، ويترك مكة المكرمة التي عاش في أكنافها و
الفيض الإلهي المقدس في أجوائها وفي جبالها ووديانها، ويترك غار حراء ا
عانق فيه السماويين.. يترك كل هذا ويعلمنا كيف ينبغي للمؤمن أن
أحب شيء عنده في سبيل دعوة جليلة مقدسة. وحينما أخرجه قومه من
المكرمة لم يكن في حالة روحية أليمة لتركه ما وراءه، بل كان ينظر
ونشوة إلى ما يقابله في أفق المستقبل.

العدو يتربص به الدوائر ويتعقبه خطوة خطوة ويحيط به من كل ج
كحلقة من نار حتى بلغ به الأمر الاختباء في غار ثور، ومن هناك ي
الحامل الأبدي للدعوة العظيمة إلى المدينة المنورة ليبني الصرح السامق ويس
الإنسانية جمعاء، ولأجل هذا كان في كل آن يسيح في حضن موت -
وكأنه يجابهه في كل زاوية وفي كل ساحة وميدان. ولكن لم تستطع
العوائق كلها من أن تورث فيه اضطراباً أو قلقاً قط. وحتى عندما كانت
الأعداء تشاهد من الغار الذي اختبأ فيه، كان سيدنا أبا بكر رضي الله عنه يقلق ا
رسول الله ﷺ إلا أنه كان في اطمئنان بالغ كما يصفه أبو بكر رضي الله عنه"

يبعث طمأنينة كأنه بين أصحابه الأمناء". ثم ما الداعي إلى القلق والاضطراب؟ فلئن كان الله سبحانه يريد ان يأخذه من هذه الدنيا فسيأخذه اذن من تحت عبء عظيم وسيرسله إلى عالم الراحة والطمأنينة. فلمَ يضطرب؟ ألا ينجو من دنيا كل شيء فيها زائل إلى عالم كل شيء فيه باق؟ أليس الله معه كل حين ؟ ألا يراه ويرى كل أحواله كل آن ؟..ولهذا خاطب أبا بكر بـ(ما ظنك باثنين الله ثالثهما) بمعنى أوَ تظن أن محمداً وأبا بكر وحيدان فريدان ؟ إن الله معنا. هكذا كان يقول لأبي بكر ولا يخاف قط. بل لو عاداه أهل الدنيا كلها لم يغتم ولم تنل الدنيا منه شيئاً قط. بل لو تركه الناس كلهم أجمعون وحتى أبا بكر لكانت ثقته بالله واعتماده عليه تملآن قلبه اطمئنانا به، فالله سبحانه وتعالى يؤيده بجنود لا نراها.[٧٧]

نعم، إننا لا ندرك كيفية أولئك الجنود ولكن ندرك الحقيقة الآتية وهي: ان الرسول الكريم ﷺ كان مؤيَّداً بجنود الله مرات ومرات.[٧٨] وما معركة بدر إلاّ أنشودة هذا التأييد. فمثلما يُطلق على الصحابي الذي اشترك في بدر انه من "أصحاب بدر" كذلك يطلق على الملك الذي اشترك فيها انه من "ملائكة بدر".[٧٩] يذكر صحابي جليل إحدى تلك البطولات الفريدة الخارقة بالآتي:

(بينا رجل من المسلمين يشتد (يسرع) في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم. إذ نظر إلى

---

٧٧ انظر البخاري، تفسير سورة التوبة ٩. المسند، ١/٤ .
٧٨ انظر سورة التوبة:٢٦ مسلم، الجهاد والسير،٥٨
٧٩ البخاري، فضائل أصحاب النبي ، ١١

المشرك أمامه ، فخر مستلقياً. فنظر إليه ، فإذا هو قد خطم أنفه، وشق وجهه كضربة السوط..)[80] وعندما ذكر الحادث للرسول الكريم ﷺ قال: "حيزوم" اسم فرس جبريل والذي ضرب السوط هو. فكان جبريل قد تعمم بعمامة صفراء كعمامة الزبير بن العوام ويضرب يمنة ويسرة".[81]

وفي أُحد افتقد الرسول الكريم ﷺ مصعب بن عمير، و كان أمامه مصعب يقاتل بين يديه. وعندما آلت الشمس إلى الغروب وولى الكفار، قال الرسول ﷺ: "أقدم يا مصعب" ولكن الذي ظنه مصعباً هو مَلك كريم. قال: لست مصعباً يا رسول الله.[82] وهكذا يفهم كيف أن الله يؤيده بالملائكة. نعم إن الله سبحانه وتعالى ما ودّع حبيبه ﷺ وما قلاه قط.[83] وفي حُنين لم يتركه الله عز وجل في تلك الآونة الحرجة جداً دون تأييد من الملائكة.[84]

إن أغلب الذين يتخلفون عن الجهاد إنما يتخلفون عنه خوفاً على الحياة. والحال لا يُترك قطعاً من يسير في هذا الدرب ويدرج في هذا السبيل ولا يبقى وحيداً فريداً كما لم يُترك وحيداً قدوتنا العظمى ومفخرة الكونين في أحلك الأزمان وأحرج الأوقات.

إن من يستسلم لله حق الاستسلام لا يقلق أدنى قلق ولا يضطرب قط، لأنه يعتقد: "أنني مؤمن بالله، فهو معي، لا داعي إذن للتوتر ولا إلى التسيب.

---

٨٠ ابن كثير، التفسير، ٣/٥٦٠-٥٦١. مسلم، الجهاد والسير، ٥٨.
٨١ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٦/٨٣
٨٢ ابن سعد ، الطبقات،٣/١٢١
٨٣ انظر الى سورة الضحى: ٣
٨٤ انظر سورة التوبة:٢٦

فلا يخيفني شيء أبداً مادام الله الذي لا إله إلا هو له الملك وله القدرة المطلقة ظهيري ونصيري". فما ينبغي التردي إلى هاوية التردد كما تردى فيها اليهود. إذ لما استُنفروا للجهاد عصوا نبيهم لما ساورهم من قلق بلا سبب فأبدوا عدم الاطمئنان بالرب الجليل. وان تخلّفهم كان لتخوف لا معنى له لم يفدهم شيئا غير جلب ما يُتخوف منه. فنالوا صفعة تأديب خلاف مقصودهم، فتاهوا أربعين سنة في الصحراء.

ونحن إن كنا نريد أن ينتهي ما نحن فيه من تيه واضطراب نقاسيهما طوال ثلاثة عصور خلت، علينا أن نعود إلى هويتنا الأصيلة وشخصيتنا الذاتية في ظل تربية الحقيقة الأحمدية عليه الصلاة والسلام، ونسعى للاندماج بالإسلام.. نعم، نسعى كي ينجينا الله تعالى مما نخشى منه ونضطرب فيه. وسيجعلنا سبحانه وتعالى أعزاء كرماء مادمنا لا نركن إلى المنافع المادية كثيراً ولا نشغفها حباً ولا ننكس رؤوسنا أذلاء أمام مطامع الدنيا بل ندير ظهورنا إليها وإلى أذواقها ولذائذها.

من الناس من يضحي بآخرته لأجل نعم دنيوية ولذائذها، ومنهم من يجعل دنياه كلها في سبيل آخرته. فالمؤمن هو هذا. فهو يستخدم كل ما منحه الله سبحانه له في الدنيا في سبيل إعمار آخرته.

المؤمن هو من يعيش لدينه. فإذا أصبح الدين مهيمنا على العالم ومسيطرا عليه وجعل الأرض تحت حاكميته فعندها تكون لحياته معنى. وإلاّ فالحياة المعاشة ليست إلاّ عبئاً ثقيلاً. المؤمن لا يحب نمط حياة لا يهيمن عليها دينه.

بل يقول: "تباً لمثل هذه الحياة". فالمؤمن الحق يترنم ويستشعر دائماً صدى هذا القول:

"لقد ضحيت حتى بآخرتي في سبيل تحقيق سلامة إيمان المجتمع، فليس في قلبي رغب في الجنة ولا رهب من جهنم، فليكن سعيد بل ألف سعيد قرباناً ليس في سبيل إيمان المجتمع التركي البالغ عشرين مليوناً فقط بل في سبيل إيمان المجتمع الإسلامي البالغ مئات الملايين. ولئن ظل قرآننا دون جماعة تحمل رايته على سطح الأرض فلا أرغب حتى في الجنة، إذ ستكون هي أيضا سجناً لي، وإن رأيت إيمان أمتنا في خير وسلام فإنني أرضى أن أُحرق في لهيب جهنم، إذ بينما يحترق جسدي يرفل قلبي في سعادة وسرور."[85]

فهذه كلمات من استعلى على رغبات النفس الأمارة. ومن المعلوم أن من استعلى على رغبات نفسه وحظوظها لا يحول دونه شيء.

---

٨٥ سيرة ذاتية لبديع الزمان سعيد النورسي، ص ٤٥٧

٢. علاقة الجهاد باستحقار الحياة

إن استحقار الحياة مرتبة أعلى من ترك الدعة والراحة وهو الآخر شرط مثله لمن يريد الجهاد في سبيل الله وضمن مرضاته ووفق موازينه. اجل ان جهاد الذين لا يستطيعون استحقار الحياة ويعجزون عن رؤية العقبى واضحة كرؤيتهم للدنيا، من الصعوبة جدا ان يعيشوا الجهاد بكل أبعاده. والدليل على هذا من خير القرون:

"قال علي ﷺ: لما انجلى الناس عن رسول الله ﷺ يوم أحد نظرت في القتلى فلم أر رسول الله ﷺ فقلت والله ما كان ليفر وما أراه في القتلى ولكن أرى الله غضب علينا بما صنعنا فرفع نبيه ﷺ فما في خير من أن أقاتل حتى أقتل فكسرت جفن سيفي ثم حملت على القوم فأفرجوا لي فإذا أنا برسول الله ﷺ بينهم."[٨٦]

نحن مضطرون للتوغل في الحياة الاجتماعية والجهاد المستميت المستديم. مضطرون إلى جهاد لا يُبغى من ورائه غير مرضاته سبحانه، مشحون بـ :"ليس في قلبي رغب في الجنة ولا رهب من جهنم". وينبغي أن تكون أنبل غايتنا التضحية بكل ما نملك في هذا السبيل. مرددين ما قاله ثابت بن الدحداح يوم أحد والمسلمون أوزاع: يا معشر الأنصار إليّ إليّ إن كان محمد قد قتل فإن

---

٨٦ أبويعلى، المسند ١/٤١٥؛ انظر الكاندهلوي، حياة الصحابة ١/٥١٥-٥١٦، ابن حجر، الإصابة ١/ ١٩١؛ ابن الجوزي، صفة الصفوة ١/٣١٣

الله حي لا يموت فقاتلوا عن دينكم".[87] فعلينا أن نغادر هذه الدنيا كما غادرها بابتسامة مشرقة مستنشقاً رائحة الجنة دون أُحد.

إن استحقارالحياة بكافة مرافقها وإقامة التوازن بين الدنيا والعقبى هو المعيشة اللائقة و الحياة المثلى. إذ تنحل كل الأمور بعد إقامة هذه الموازنة. فالأساس هو إقامة هذا التوازن باختيار الأولى والألزم لدى مواجهتنا الدنيا والآخرة معاً واستقرارهما بثقليهما كلها في وجداننا. وهذا يقتضي تقييم الدنيا بقدر قيمتها والآخرة بقدر قيمتها.

فالذين يستطيعون إقامة هذا التوازن لا يدنو منهم خوف ولا قلق. فلو انفلقت الدنيا على رؤوسهم لما ساقهم إلى أي اضطراب كان. ذلك لأن الخوف والقلق إنما ينشآن من عشق الدنيا والهيام بها بينما هؤلاء يستحقرون الحياة. فلا يعني في مثل هذه الحياة العابرة القلق والاضطراب شيئا. وعليه فإن ما يستحق الربح والفوز هو في ديار الآخرة، فيجب بذل الجهود الى تلك الجهة. حيث الشوق إلى الآخرة نبع فياض مبارك للشجاعة والجسارة.

انظروا إلى هذا المثال: لقد ضحى المسلمون بسبعين شهيدا في أُحد، والباقون أُثخنوا جروحاً. وهكذا رجعوا إلى المدينة. حتى كان الرسول ﷺ معصوب الرأس من الجرح، والجميع منهكو القوى لا يقدرون على حمل سلاح. في هذه الأثناء إذا بخبر يشاع بين الناس مفاده أن أبا سفيان سيأتي مع جيشه إلى المدينة مرة أخرى. وما أن بلغ رسول الله ﷺ هذا الخبر حتى أمر

---

٨٧ الكاندهلوي، حياة الصحابة١/٥١٦؛ صفة الصفوة ١/٦١٦

بالخروج لطلب العدو و "أن لا يخرج معنا أحد إلا حضر يومنا بالأمس". لم يتوان أحد قط عن إنفاذ الأمر. علما أن بعضهم قد فقد ذراعه وآخر فقد ساقه ورجله ولكنهم جميعا حضروا منتظرين في مكان التجمع، بل كان منهم من أتى زحفا. إذ لما كان الأمر هو الخروج للجهاد فلم يقعد صحابي في زاوية ولم يتخلف. انه لا يحمل خوفا ولا فتورا، على الرغم من أجسامهم المثخنة بجروح استنفدت طاقتهم ولكن أرواحهم كانت تطير بأجنحة الشوق. والقران الكريم يبين وضعهم بالآتي:

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (آل عمران: ١٧٣)

لقد أثّر هذا الخروج في صفوف العدو تأثيرا عظيما حيث ولّوا مدبرين ولم يعقبوا على شيء لما ظنوا ان المسلمين قد خرجوا لطلبهم والتحقت بهم قوات ممدة. وهكذا سجل حفنة من الأسود المضرجين بالجروح بجسارتهم سطورا ذهبية في التاريخ، فغدا المسلمون منتصرين في أُحد كذلك[٨٨]. حقا إن المسلم هو الفائز دائما. إذ يفوز بإحدى الحسنيين فيصبح شهيداً أو مجاهداً أو يصون عزته وكرامته فيفوز أيضا. سأورد هنا إحدى مشاهداتي:

في غضون أيام الإرهاب والفوضى التي ضربت أطنابها في البلاد. حتى بدأ الإرهابيون يفتشون السيارات العابرة ويتخذونها ترسا لهم تجاه قوات الجيش والشرطة للدولة. ولما أرادوا مرة حجز شاحنة مارة واتخاذها ترساً، إذا بسائق

---

٨٨ ابن كثير، البداية والنهاية، ٤٩/٤

الشاحنة – ولا نعلم مبلغ إيمانه ودينه– يخرج عليهم وليس بيده سوى عصا غليظة فيشتت عشرين منهم أيما تشتيت. هكذا المسلم مضطر في سبيل صيانة عزته وكرامته ان يبدي جسارة كما أظهرها هذا السائق صيانة لماله وعرضه وشرفه. وعلى المسلم ان يعرف كيف يتصرف تجاه الأعداء، فلا يستسلم للإرهابي ولا يقبع في بيته في خوف ووجل. بل عليه ان يكون معاوناً على الخير معينا على الحق.

ولأجل ألا تفسح المجال لتأويلات وتفسيرات خاطئة لابد أن أوضح أمرا: إنني لا أقول لأحد أيا كان تسلحوا وجوبوا الشوارع والأزقة لا أقول هذا قطعا. وإن ما اقصده هو ان الخوف والقلق غير وارد لمن آمن بالله.

وإذا أردنا أن نبين مثالا لهذا فسيدنا الزبير بن العوام ﷺ في مقدمة الأمثلة:

كانت أزقة مكة في يوم من الأيام تهتز بخبر مذهل يصدم الناس كلهم. فقد أُشيع ان محمدا الأمين قد قتل الجميع في حالة حيرة وذهول لا يعرف كيف يتصرف، غير غلام لا يتجاوز الإثنتي عشرة سنة من العمر يركض من زقاق إلى آخر وبيده سيف يجره. هذا الغلام هو الزبير بن العوام الذي حظي بعد مدة بلقب حواري رسول الله ﷺ [٨٩] وهو ابن عمة رسول الله صفية. كان ينتقل هنا وهناك كالمجذوب، ولم يكن أحد يعرف ماذا يريد ان يصنع. وأخيرا وفي إحدى الأزقة إذا به أمام رسول الله ﷺ فقال له: "إلى أين يا زبير؟". فاضطرب الزبير إذ كان يظن أن سيد الكونين رسول الله قد قتل. فقال:

---

٨٩ البخاري، الجهاد، ٤١ ؛ مسلم،فضائل الصحابة،٤٨

اذهب الى قتل من قتلك. فسأله رسول الله بابتسامة: بم ستقتل من أراد قتلي؟" قال وهو لا يكاد يرفع بيده الواحدة السيف فرفعه بيديه وقال: بهذا السيف يا رسول الله. اجل أن الزبير قد انطلق إلى الأزقة حاملا سيفا لا يستطيع حمله، ذلك لأنه يعلم ان لا قيمة لحياة لا تنطوي على محبة رسول الله. وهو يستحقر الحياة مظهراً بطولته.[٩٠]

نرى في اليمامة أيضا منظرا آخر لاستحقار الحياة. منظراً مهيباً لمن توجه الى الآخرة. كان عمار بن ياسر قد بلغ من العمر مبلغا ولكن ما كان يقول "لقد كهلت فلا حرج علي". كانت الحرب قد استعرت على اشدها وبدأ الانحلال يطرأ على اليمين والشمال فإذا بالمسلمين يسمعون صوتا مألوفا لديهم ليس غريبا عليهم، يقول: "ايها المسلمون أهروبا من الجنة ؟ فها أنا عمار بن ياسر".

"عن عبد الله بن عمر قال: رأيت عمار بن ياسر يوم اليمامة على صخرة وقد أشرف يصيح يا معشر المسلمين أمن الجنة تفرون أنا عمار بن ياسر هلموا إلي وأنا أنظر إلى أذنه قد قطعت فهي تدبدب وهو يقاتل أشد القتال".[٩١]

اجل لقد صدق قائد هرقل عندما قال: "أيها الملك لا طاقة لنا بهؤلاء انهم يحرصون على الموت كحرصنا على الحياة، ويحبون الآخرة كحبنا للدنيا..

لم يظفر عمار بما كان يتوق إليه في اليمامة. فقد قال له الرسول الكريم ﷺ " إن آخر شراب تشربه لبن.."[٩٢] وعمار كان يتوق إلى هذا اللبن لا يدري

---

٩٠ ابن الأثير، أسد الغابة،٢/٢٥٠؛ علي المتقي، كنز العمال،٢١١/١٣.
٩١ ابن الأثير، أسد الغابة ٤/١٣٤؛ الكاندهلوي، حياة الصحابة ٢/٤٥
٩٢ إبن سعد ، الطبقات ٣/٢٥٦؛ علي المتقي، كنز العمال، ١٣/٥٣٦-٥٣٧

أهو في مؤتة أم في اليرموك أم في اليمامة فيخوض حربا إثر حرب. ولكن لم يحظ بالموت في كل هذه الحروب حتى بلغ صفّين وأخذ موضعه في صف سيدنا علي ﷺ وقد تجاوز التسعين من العمر آنئذ واشتعل رأسه شيبا وكأنه من نور لا يُرى فيه شعر اسود. حارب حتى المساء وعندها قال: "أليس شيء للشرب" فقدموا له قدحا من لبن، وما ان رأى اللبن حتى قال هذا آخر رزقك يا عمار، لأنه قد سمعه هكذا من رسول الله ﷺ وبعد قليل شاهد الناس أفول شمس أخرى مع أفول الشمس، هذه الشمس ستشرق على سفوح الجنة. عمار لا يعرف الموت. إذ كان على يقين ان الأجل لا يتأخر ثانية ولا يتقدم[93] والقرآن الكريم يبين هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٥).

اجل إن الله ﷻ قد عين اجل كل مخلوق مذ خلقه. فكل يموت عندما يحين أجله. سيدنا عمر ﷺ توفى بطعنة وهو يصلي بالناس مع أنه قد خاض حروبا كثيرة[94]. وخالد بن الوليد قد قضى عمره في القتال وليس في جسده موضع درهم لم يصب بطعنة سيف أو رمح ولكنه عندما حان الأجل سلم روحه على الفراش.[95]

إنني أسعى لعرض الأمر الآتي:

---

٩٣ إبن الأثير ، أسد الغابة، ٤/١٣٤-١٣٥؛ ابن كثير، البداية، ٢٦٨/٧

٩٤ ابن سعد ، الطبقات ٣٦٥/٣

٩٥ انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء ٣٨٣/١

إن الأجل الذي قدره الرب الجليل لا يُستقدم دقيقة ولا يُستأخر. إننا نموت في الوقت الذي عينه الرب الجليل. فلا يمكن ان يحدث شيء دون إذنه وأمره. فلا نجاة من الموت اذا أقبل ولا اللقاء به قبل أوانه. فالذين تعقبوا الموت لم يظفروا به كما لم ينجوا منه بالفرار منه، ولما كان الموت لا يحل بأحد إلا في وقته المعين فالأفضل ان يموت المرء عزيزاً. فموت المسلم عزيزا يخدم الإسلام ويفيده بمثل فائدة حياته في الأقل. لأن موته عزيزاً يرفرف على رؤوس الذين يأتون من بعده راية ذات عبرة. بل يكون عبرة ودرساً لكل ناظر إليه. نحن لم ننس سيدنا حمزة ﷺ ولن ننساه أبداً. وكيف ننساه وقد سطر الملائكة الكرام بدمه في السماء: "أسد الله"، بعد ما قُطّع أوصالا وهو يحارب بين يدي رسول الله. حتى اعتقد أناس وجرب آخرون أن روحانية سيدنا حمزة -إذا ما استُمد منها- تتمثل لهم وتمدهم في أعمالهم. فذوو الأبصار المفتحة يمكنهم أن يشاهدوه كل حين. فهو يحضر في أي مكان يذكر اسمه جزاء حسنا لمن ضحى بنفسه في طريق رسول الله ﷺ فهذه المرتبة والشرف السامي يمنح – منذ ذلك الوقت – لكل من ضحى بنفسه ومات عزيزا كريما في سبيل دعوة الإسلام العظيمة التي آمن بها.

من عشاق الجهاد

١. سيدنا محمد (ﷺ)

ان رسولنا الحبيب ﷺ هو أعظم من بعث رسولاً حظي بالألطاف الربانية من البداية إلى النهاية. فهو صاحب لواء الحمد. وهو المخلوق المتميز بالمغفرة لما تقدم من ذنبه وما تأخر. بمعنى أن الله سبحانه كما لم يقدّر له الذنب قبل رسالته لم يتح له الفرصة في أثناء رسالته كذلك لاقتراف الذنوب. فهو سيد الأنبياء والمرسلين وهو حبيب رب العالمين بل أحب مخلوق عنده فقد أُعطي له كل شيْ حتى لم تبق مرتبة دنيوية أو أخروية إلا أُعطي له.. ومع هذا كان ﷺ له طلب و رغبة. وهي ما نراها في رواية البخاري ومسلم:

(والذي نفس محمد بيده لوَدِدْتُ أنى أغزو في سبيل الله فأُقتل ثم أغزو فأُقتل ثم أغزو فأُقتل).[٩٦]

هذا هو ما كان يتمناه ويطلبه الرسول ﷺ. تُرى ما حاجة فخر العالمين إلى الشهادة؟ وما الضرورة إلى الرغبة في الشهادة والتوضؤ بالدم وهو الذي توّج بـ (لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك) [٩٧]

اجل، كان يرغب ويسأل ويطلب لأن الشهادة تحل العقد كلها وتكسب الإنسان في المحكمة الكبرى مراتب رفيعة متميزة. ماهية هذه المراتب نسمعها وندركها منه أيضا:

---

٩٦ مسلم، الإمارة ١٠٣-١٠٦؛ البخاري، الإيمان ١٢٦؛ النسائي، الجهاد ١٨-٣٠.

٩٧ تكلم علماء محققون حول هذا الحديث، فمنهم من أقره ومنهم من ضعفه ومنهم من أقره ،ولعل قول علي القاري في شرح الشفا (٦/١) يعدّ خلاصة جيدة، حيث يقول:" إنه صحيح معنى ولو ضعف مبنى".

(عن أنس ابن مالك أن النبي ﷺ قال إذا وقف العاد للحساب جاء قوم واضعي سيوفهم على رقابهم دما فازدحموا على باب الجنة فقيل من هؤلاء قيل الشهداء كانوا أحياء مرزقين)[٩٨] وعندما يقول الرسول ﷺ" لوَدِدْتُ أنى أُقتل في سبيل الله ثم أُحيا .." يلفت الأنظار الى هذه النقطة. فإن بين الأنبياء الكثيرين ممن جاهدوا في سبيل الله ولبسوا لباس الحرب فأُكرموا بالشهادة فضلا عن النبوة. وإذا ما نظرنا إلى الرسول ﷺ بهذا المنظار فكلنا نعلم كيف أن امرأة يهودية في خيبر دعت الرسول ﷺ فتسمم إثر وضعها السم في الطعام[٩٩]. ولدى بعض مؤرخي التاريخ الإسلامي أنه توفي من أثر ذلك السم. وهذا يعني – من ناحية – الشهادة. أي أن الرسول الحبيب قد توفي شهيداً. إلا أنه كان يريد أن يستشهد خلف السرايا ولكن الله سبحانه قد وعد بعصمته من الناس لئلا تتفرق الأمة المحمدية . أي انه تعالى قد قبل سؤاله ﷺ للشهادة أيضا بشكل آخر.

٩٨ الهيثمي، مجمع الروائد ٤١١/١٠؛ المنذري، الترغيب والترهيب،٣١٨/٢.
٩٩ أبو داود،الديات٦.

٢. سيدنا عمر ﷺ

كل ذي عقل يتمنى الشهادة نتيجة النضال والمجاهدة. فسيدنا عمر ﷺ من هؤلاء. فقد ارتقى منبر رسول الله في المسجد النبوي بعد أبي بكر الصديق وخطب في بالناس تحت مشاهدة روحانية الرسول ﷺ طوال عشرة سنوات. أقول تحت مشاهدة روحانية الرسول ﷺ لأن الرسول ﷺ لم يمت في نظر عمر. بل بدل غرفة بغرفة. أي انسحب من غرفة عائشة رضي الله عنها[١٠٠] الى غرفة السعادة والنور تحت الأرض ويرى من خلفه من عالم البرزخ وعالم المثال.

وفي خطبة ذكر سيدنا عمر جنة عدن، واصفا سعتها وأبوابها وأول من يدخلها الأنبياء، ثم أعقب كلامه مباشرة بنظرة لطيفة إلى قبر الرسول ﷺ مع انحناءة باحترام وتوقير قائلاً : "هنيئا لك يا صاحب القبر" ثم استمر في ذكر الداخلين الى جنة عدن وهم "الصديقون" وكذا بالتفاتة لطيفة وانحناءة باحترام وتوقير توجه إلى قبر أبي بكر الصديق قائلا :"هنيئا لك يا صاحب هذا القبر". ثم قال: يدخل جنة عدن من بعدهم الشهداء – ولعله تذكر ما بشره الرسول ﷺ بالشهادة عندما كانوا معه على أُحد بقوله :(أثبت أُحد فَما عليك إلاّ نبيٌ وصدّيق وشهيدان)[١٠١] ولعله تذكر ذلك اليوم المبشّر به فسكت هنيهة.. والجميع يرقبون ما ستتحرك به شفاه عمر من كلام. فقال لنفسه متذمرا: "اين

---

١٠٠ المسند،٦/٤٨٩ ابن سعد، الطبقات٢/٢٢٩

١٠١ البخاري، فضائل أصحاب النبي ٦؛ أبو داود،السنة ٨.

الشهادة منك يا عمر؟" أي هل ستظفر بها؟ أو ما شابه من هذا الكلام. ثم توقف مرة أخرى وباشر كلامه: "إن الله الذي هداك إلى الإسلام ووهبك الهجرة وجعلك من أصحاب النبي ورزقك العيش في المدينة يجعل الشهادة من نصيبك أيضا"[١٠٢] كان هذا حلم سيدنا عمر ان يُرزق الشهادة. وهو الذي قال الرسول الكريم بحقه (لو كان بعدي نبي لكان عمر)[١٠٣] وهو الذي ارتشف بالدرجة التالية من رحيق العلم اللدني الذي ارتشف منه الرسول ﷺ بالدرجة الأولى. وهو نموذج رفيع لا يضاهى للأمة. ومع كل هذا كان يرغب في ان يرصع بالشهادة تاج المجاهدة والجهاد الذي وضعه على رأسه.

ولا نعلم المدة الزمنية بين خطبته هذه وبين الطعنة التي نالها وهو يؤم المسلمين وطرحه على الأرض في الصلاة مضرجاً بدمه. لا يذكر لنا التاريخ عن هذا شيئا جازما. ولربما كان عمر في غضون إيراده تلك الخطبة يعيش أيامه الأخيرة وكان يتمنى الموت ضمنا ويرغب فيه. فلقد بلغ به فراق الرسول الكريم والصديق حداً لا يطاق، فكان يدعو مراراً وبإلحاح: اللهم ارزقني الشهادة في سبيلك والموت في مدينة رسولك"[١٠٤] يدعو بهذا الدعاء ويتضرع إلى ربه ويبكي والمسلمون وراءه يبكون. وقد استجاب الله سبحانه دعاءه في إحدى صلواته فطُعن فأُكرم عمر بالشهادة.[١٠٥]

---

١٠٢ الظر الهيثمي، مجمع الزوائد ٩/٥٤؛ علي المتقي، كنز العمال١٤/٦٤٥.
١٠٣ الترمذي المناقب ١٨؛ الهيثمي، مجمع الزوائد٩/٦٨.
١٠٤ البخاري، المدينة٢٩؛ ابن سعد، الطبقات٣/٣٣١؛ ابو نعيم، حلية الأولياء١/٥٣.
١٠٥ إبن الأثير، أسد الغابة،٤/١٧٨؛ ابن سعد، الطبقات،٣/٣٥٤.

وفي الحقيقة أننا لو أدركنا مدى أهمية دمعتين وقطرتين تسكبان في سبيل الله شوقا إلى العالم الآخر عند مليك مقتدر لرغبنا في اقتناص تلك الحالة بألف شوق وشوق واصطفقنا لها كالحمام. ومعلوم أن هذا أيضا مرتبط بدرجة الإيمان والإذعان.

يقول الرسول ﷺ فيما يخص هذا الموضوع :

(عينان لا تمسّهما النارُ عينٌ بَكَت من خشية الله وعينٌ باتت تحرس في سبيل الله).[106]

اجل ان الله ﷻ يحب هاتين القطرتين إلى هذا الحد. فالذي يربط محبته بما يحبه الله ويرضاه ويعدّ نفسه لهذا السبيل لا يرغب في شيء من ملذات هذه الحياة الدنيوية ويعزف عن أذواقها الظاهرية. فلا يتذلل أمام مغريات الدنيا، بل يتأهب للعقبى بمشاعره ولطائفه كلها. ومن المعلوم إن هذه الأمور منوطة ببلوغ الإنسان إلى العرفان. وذلك أمر ليس بالسهل واليسير بل هو من أصعب الأمور وأشقها. فالعرفان كما نفهمه هو اشتعال شعلة الإيمان في داخل الإنسان حتى يرى بنور الإيمان العقبى كما يرى الدنيا. فيشاهد ويطالع ما في العقبى كما يشاهد ويطالع ما في بالدنيا. وعندها يتولد في داخل الإنسان شوق عارم إلى الآخرة لا يفضل كل من يملك عقلا أي شيء كان على المجاهدة في سبيل الله ولا على الشهادة في ذلك السبيل. فكيف يميل إلى هذه الدنيا الفانية الفاسدة من شاهد الجميل السرمدي و الجمال الأبدي؟.

---

١٠٦ الترمذي، فضائل الجهاد، ١٢؛ علي المتقي، كنز العمال،٣/١٤١.

٣. عمرو بن جموح - سعد بن خيثمة

الشهادة ضمان الظفر بالخلود. وكان عمرو بن جموح و سعد بن خيثمة من الذين ظفروا في عصر النور بهذا الضمان. كانا طريحي الفراش لا طاقة لهما على السير إلا بالاعتماد على العصا. ولكن ما إن سمعا نداء الجهاد إلا وانتفضا من موضعهما انتفاضة الأسد الجريح وتأهبا للجهاد. خاطب كل منهما أولادهما وأحفادهما قائلا: "لو كان الأمر شيئاً غير الجهاد لفضلتكم على نفسي ولكن الأمر أمر الشهادة ولقاء الله جل وعلا والفوز بالجنة الخالدة. في هذا لا يفضل أحد غيره على نفسه" وذلك عندما قالوا لكل منهما: "أنت مريض طريح الفراش فقد بلغت من العمر عتيا، دعنا نخرج عنك للجهاد". فهذا الحوار جرى في بيتين مختلفين وبين متحاورين مختلفين، ولكن يكاد أن يكون المعنى واحداً. مع انه لا علم لأحدهما بالآخر. واحتكما معاً إلى الرسول ﷺ، اشتكى الشيخان من الشباب قائلَين "ان أولادي وأحفادي لا يدعاني ان ارزق بالشهادة وأن أضحي في سبيلك روحي بكل سرور". ومهما حاول الرسول تهدئتهما إلا أنهما كانا قد سددا نظريهما إلى الجنة فاضطر الرسول ﷺ في النهاية إلى القول نعم، وهكذا يشترك الشيخان في الجهاد. وبعد ذلك يقول الرسول محدقا بصره إلى العالم العلوي: "أرى عمرو بن جموح يركض في الجنة وقد سلمت رجله". ووجدا ظهرا بظهر طريحين معا على

الأرض.[١٠٧] اجل لقد استشهد سعد بن خيثمة وعمرو بن جموح في سبيل الله. والشاهد على هذا رب العزة وسيد المرسلين والملائكة الكرام. فهم شهود جميعاً على انهما قد ضمنا الجنة.

وغيرهما يمكن أن يعيشوا بالرغبة نفسها وهم مازالوا في الدنيا، يعيشون و الموت والاستشهاد أسمى غايتهم. ولكن كما ذكرنا من قبل ان هذا الأمر مرتبط بالعرفان واتباع الواصلين. فالبكاء هنا ينقلب هناك إلى ضحك وسرور، والقلق والمعاناة إلى الانغماس في الأذواق واللذائذ، والضيق والحرمان إلى مفارقة كل ضيق وحرمان. فعلى المرء ان يدرك هذا جيدا ويلقن نفسه هذه الحقائق دائما. ولهذا فالتنقيب عن وقائع ماضينا سيكون نافعا جدا. وقد أتت إلينا دعوة الإسلام العظيمة منذ الرعيل الأول إلى الآن بهذا الشعور وعلى هذه الشاكلة. نعم إن التضحية بالنفس كانت عندهم رغبةً وعشقاً وتوقاً وهياماً مع انهم كانوا بشراً مثلنا وكانوا يحبون الحياة. ولكن الذي دفعهم إلى هذا السبيل حقيقة أخرى. ولا يمكن إيضاح هذه الحقيقة إلا انهم بلغوا العرفان. والقران الكريم يغرز فينا هذا العرفان ويعلن انه لا يلحق المجاهدين في مثوبتهم إلا من عمل بمثل عملهم ومن اقتدى بهم في جهادهم وانهم ليسوا أمواتا قطعا بل أحياء عند ربهم بحياة لا ندركها نحن ولا يدركها إلا من بلغها.

---

١٠٧ الهيثمي، مجمع الزوائد،٣١/٩؛ ابن الأثير ، أسد الغابة،٢٠٨/٤؛ المسند ٢٩٩/٥.

٤. جعفر بن أبي طالب ﷺ

الشهادة دليل عزة المؤمن. والشهيد يرى من العزة والإكرام في الآخرة ما لضيف عزيز مكرم. وما رآه جعفر بن أبي طالب من الإكرام هو المثال الأنموذج.

لقد حارب جعفر بن أبي طالب ببطولة فائقة في مؤتة. حتى يقول الذين كانوا يراقبونه انه لم يلتفت إلى الوراء ولا مرة واحدة. ولما أصبحت فرسه تعيق مبارزته وتعرقل اندفاعه، تركها فورا ونزل من ظهرها وقطع قوادمها بالسيف وانطلق راجلا يخوض المعمعة ويقابل الموت بصدر رحب وجنان جريء.. حتى فقد ذراعيه واستشهد.[١٠٨] وقال الرسول الكريم ﷺ في مجلس يضم ابنه عبد الله ليسري عنه: "رأيت جعفراً يطير مع الملائكة في الجنة" [١٠٩]

اجل لقد حظي جعفر بنعمة الطيران مع الملائكة. منسلخا من أوهاق البشرية فأصبح كالملك.

---

١٠٨ أبو داود، الجهاد،٥٩؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ٣٤٣/١

١٠٩ الترمذي، المناقب،٢٩؛ الواقدي، المغازي، ٧٦٧/٢

٥. أبو عقيل ﷺ

أبو عقيل أسطورة بحد ذاته. شهد بدراً، وبعدها شارك في جميع الغزوات مع رسول الله ﷺ. ولكنه لم يظفر بما كان يتوق إليه ويبحث عنه. وما نال ما يبغيه إلا في اليمامة، في الحرب الضروس مع مسيلمة الكذاب. فكانت اليمامة آخر يومه في الدنيا... وفي الحقيقة ان هذا اليوم الأخير جدير بأن يطلق عليه يوم الخلود. فلقد دبج أبو عقيل بدمه في ذلك اليوم قصيدة عصماء لا يقدر على مثلها أحد من الشعراء. لنستمع الآن إلى الحادثة من إبن عمر:

لما كان يوم اليمامة واصطف الناس للقتال كان أول الناس جرحاً أبو عقيل الأنيفي رمي بسهم فوقع بين منكبيه وفؤاده فشطب في غير مقتل فأخرج السهم ووهن له شقه الأيسر لما كان فيه وهذا أول النهار وجر إلى الرحل فلما حمي القتال وانهزم المسلمون وجازوا رحالهم وأبو عقيل واهن من جرحه سمع معن بن عدي يصيح بالأنصار الله الله والكرة على عدوكم وأعنق معن يقدم القوم وذلك حين صاحت الأنصار أخلصونا أخلصونا فأخلصوا رجلا رجلا يميزون قال عبد الله بن عمر فنهض أبو عقيل قومه فقلت ما تريد يا أبا عقيل ما فيك قتال قال قد نوه المنادي باسمي قال بن عمر فقلت إنما يقول يا للأنصار لا يعني الجرحى قال أبو عقيل أنا رجل من الأنصار وأنا أجيبه ولو حبوا قال بن عمر فتحزم أبو عقيل وآخذ السيف بيده اليمنى مجردا ثم جعل ينادي يا للأنصار كرة كيوم حنين فاجتمعوا رحمهم الله جميعا

يقدمون المسلمين دربة دون عدوهم حتى أقحموا عدوهم الحديقة فاختلطوا واختلفت السيوف بيننا وبينهم قال بن عمر فنظرت إلى أبي عقيل وقد قطعت يده المجروحة من المنكب فوقعت الأرض وبه من الجراح أربعة عشر جرحا كلها قد خلصت إلى مقتل وقتل عدو الله مسيلمة قال بن عمر فوقعت على أبي عقيل وهو صريع بآخر رمق فقلت أبا عقيل فقال لبيك بلسان ملتاث: لمن الدبرة قال قلت أبشر ورفعت صوتي قد قتل عدو الله فرفع إصبعه إلى السماء يحمد الله ومات يرحمه الله قال بن عمر فأخبرت عمر بعد أن قدمت خبره كله فقال ما زال يسأل الشهادة ويطلبها "[١١٠].

---

١١٠ الكاندهلوي، حياة الصحابة ، ٨٠٣/١؛إبن سعد ، الطبقات،٤٧٤/٣-٤٧٥

٦. عبد الله بن عمرو ﷺ

هو والد جابر، حضر جابر إلى رسول الله ﷺ وقال: "توفي والدي وخلف أيتاما كثيرين عقبه، علي أن أتكفلهم و لا املك ما يعيشهم". فحضر رسول الله ﷺ بيته ليسري عنه. وكانت ابنة جابر أو أخته في غرفة مجاورة تئن أنينا حزينا بما يُسمع الرسول ﷺ:

"جابر بن عبد الله يقول: لما قتل عبد الله بن عمرو بن حرام يوم أُحد، قال رسول الله ﷺ: يا جابر ألا أخبرك ما قال الله عز وجل لأبيك؟ قلت: بلى. قال: ما كلّم الله أحدا إلا من وراء حجاب وكلّم أباك كفاحا. فقال: يا عبدي تمنَّ عليَّ أُعطك. قال: يا رب تحييني فأُقتل فيك ثانية. قال: إنه سبق مني أنهم إليها لا يُرجعون. قال: يا رب فأبلغ من ورائي، فأنزل الله عز وجلّ هذه الآية ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ الآية كلها."[111]

---

١١١ ابن ماجة، الجهاد،١١٦؛ الترمذي، التفسير ١١٨/٣؛ البيهقي، دلائل النبوة، ٢٩٨/٣؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ٣٤/٣)

٧. حرام بن ملحان ﷺ

لا أعلم هل هناك من يجهل بطولات بئر معونة؟ فلقد أرسل الرسول ﷺ من القراء الى قبيلة عمرو بن طفيل للدعوة والإرشاد، وكان بينهم حرام بن ملحان وهو خال سيدنا أنس وشقيق أم سُليم. كان واحدا ممن عشق رسول الله إلى حد الوله. وحينما اقتربوا إلى القبيلة خاطب من معه: "لأذهب أنا وتخفوا أنتم هاهنا فإن أنصتوا لما أقول تأتون من بعدي وإن أصابوني بشي تنجون" ورضي الآخرون بهذا الرأي.

وهكذا بلغ قبيلة عمرو بن طفيل، فتظاهروا كأنهم ينصتون إليه. وما أن أوضح لهم الحق وبسط الحقائق إلا وقطّعوه بالرماح إربا إربا وطرحوه أرضا غارقا في بحر من الدماء. بيد أنه حظي بنور الآية الكريمة التي سيحظى به كل فرد في الآخرة وهي: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾(ق: ٢٢) فكان بصره يرنو إلى جنات النعيم، اذ قال "فزتُ ورب الكعبة". إلا ان الكفار لم يكتفوا بقتله فحسب بل قتلوا أيضا كل من كان معه من الصحابة الكرام. كان الرسول ﷺ وقتئذ في المسجد مع أصحابه فأجهش بالبكاء.

"عن أنس قال جاء أناس إلى النبي ﷺ فقالوا: ابعث معنا رجالاً يعلمونا القرآن والسنة، فبعث إليهم سبعين رجلا من الأنصار يقال لهم القُرّاء، فيهم خالي حرام، يقرءون القرآن ويتدارسونه بالليل وكانوا بالنهار يجيئون بالماء

فيضعونه في المسجد ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفّة والفقراء فبعثهم النبي ﷺ إليهم فتفرقوا لهم فقتلوهم قبل أن يبلغوا المكان فقالوا اللهم أبلغ عنا نبينا أنّا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيتَ عنا. قال: فأتى رجل حراماً خال أنس من خلفه فطعنه برمحه حتى أنفذه، فقال: فزتُ وربِّ الكعبة. فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: إن إخوانكم الذين قتلوا قالوا لربهم بلّغ عنّا نبينا أنّا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا "[112] وباشر الرسول ﷺ بعد هذه الحادثة بقراءة دعاء القنوت في الصلاة كل يوم ودعا على أولئك القتلة[113] وقد سمح الله جل وعلا لهذا الدعاء فترة من الزمن حتى نزلت الآية الكريمة ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (آل عمران: ١٢٨) أي أن هذا الأمر يخص الله سبحانه.

فهو الذي يتخذ منكم شهداء ويجعلهم أعزاء مكرمين، ويذل الكافر بعذاب خالد في نار جهنم. فالله يمهل ولا يهمل. إذ يعطي الكافر فرصة بالإمهال ولكن إذا ما أخذه لا يفلته.[114] وكم من جبار قصم الله ظهره وكم من ظالم أخذه أخذ عزيز مقتدر وكم من فرعون دمر الله قصوره على رأسه وكم منهم من أغرقهم وكم منهم من انزل عليهم حجارة من السماء وكم منهم من تركهم تحت النيران - كما في بومبي - وما نجى جسد بعضهم إلا ليكونوا عبرة لمن خلفهم. فالله يمهل ولا يهمل. والله حليم ولكن عذابه أليم.

---

١١٢ احمد بن حنبل ، المسند٣/٢٧٠؛ إبن سعد ، الطبقات٣/٥١٤؛ سيرة الحلبية٣/١٦٩.
١١٣ مسلم، الإمارة، ١٤٧؛ البخاري، المغازي، ١٢٨؛ ابن كثير، البداية، ٤/٧١-٧٢
١١٤ انظر سورة المزمل:١١-١٣

فالذين أراقوا دماء المسلمين في بئر معونة صاروا حطب جهنم كلهم إلا من دخل في الإسلام. أما الذين استشهدوا هناك فاصبحوا في جنات النعيم. فلئن لم يكن هذا عزا وكرامة فما هو إذن؟

٨. سيدنا حمزة بن عبد المطلب ﷺ

أيمكن ألا يُذكر سيد الشهداء وأسد الله حمزة إذا ما ذكر الشهيد؟

عندما خاض حمزة معركة أُحد الحاسمة استشهد شهادة تليق به. لم يحظ شهيد ولا مجاهد بالبطولة والشجاعة بمثل ما حظي به حمزة. فقد قتل في ذلك اليوم ثلاثا وثلاثين كافرا ثم استشهد حسب ما يورده المؤرخون. بمعنى انه قتل ما يقارب نصف قتلى المشركين قبل أن يقطّع جسده أوصالا. كانت صفية أختها تبكي على نعشه المبارك وفي الوقت نفسه ربما كانت تسعى لجمع أوصال جسده. كانت شهادة حمزة تثير أشجان رسول الله ﷺ من جهة ومن جهة أخرى يثيره بكاء عمته صفية أم الزبير. لم يبق أحد من المسلمين لم يجرح في ذلك اليوم، زد على تسع وستين شهيداً. وعندما رجعوا إلى المدينة كان كلٌ يبكي على أقاربه. بكاء على الشهداء وبكاء على الجرحى وبكاء على من مات في بيته من اثر الجرح. ولكن غُفل عن واحد منهم في هذا الهياج والعويل المتصاعد فلم يُذرف الدمع عليه. نعم إنه سيد الشهداء. فهذا المنظر آلم رسول الله ﷺ كثيراً فقال بقلب منكسر حزين "ولكن حمزة لا بواكي له". وما ان سمع سعد بن معاذ هذا حتى جمع نساء الأنصار إلى باب بيت حمزة قال لهن: " ابكوا لحمزة ثم لموتاكم". ثم أصبحت هذه عادة جارية مدة ثم انقطعت. ولو أن المسلمين بكوا لحمزة قبل بكائهم لموتاهم إلى يوم القيامة، لما أوفوا حق أسد الله حمزة...[١١٥]

---

١١٥ إبن ماجة، الجنائز، ٥٣؛ المسند،٢/٤٠؛ ابن سعد ، الطبقات،٣/١٧-١٨؛ ابن الأثير، أسد الغابة،٢/٥٣

٩. عبد الله بن جحش ﷺ

وعبد الله بن جحش أيضاً من عشاق الشهادة. فقد اقتحم صفوف العدو يوم أُحد لما رأى علائم الهزيمة في صفوف المسلمين وبَدا التشتت فيها. عبد الله بن جحش وسعد بن أبي وقاص أبناء أخوال. ويتقابلان عندما اشتد الكرب وحمي الوطيس. يقول سعد بن ابي وقاص :

"قال عبد الله بن جحش يوم أُحد: ألا تأتي ندعو الله؟ فخلينا في ناحية فدعوت: "اللهم إذا لقيت العدو غداً فلقّني رجلاً شديداً بأسه، شديداً حَرَده فأقتله فيك وآخذ سلبه." فأمّن عبد الله بن جحش، ثم قال عبد الله: "اللهم ارزقني غداً رجلاً شديداً بأسه، شديداً حرده، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يقتلني ويأخذني فيجدع أنفي وأذنيّ، فإذا لقيتك قلتَ: يا عبد الله! فيم جُدع أنفك وأذناك؟ فأقول: فيك وفي رسولك. فيقول: صدقتَ." قال سعد: كانت دعوة عبد الله خيراً من دعوتي، فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنيه معلقان في خيط." ١١٦

---

١١٦ انظر إبن الأثير، أسد الغابة،٣/١٩٥؛ الهيثمي،مجمع الزوائد،٩/٣٠١

النتيجة

الموت الشريف.. يفضّله المؤمن الحق على العيش الذليل... الموت العزيز أفضل ألف مرة من العيش في عقر الدار في قلق واضطراب خوفا من تسلط الظلمة علينا. هو هكذا إذا استغرق في بحر العرفان الرباني، ذلك المسلم العزيز الكريم. ولا يدرك هذا المعنى من يعيش حياة المقابر ميتا في الحياة.

وفي الحقيقة انه من الصعوبة بمكان ان تتطهّر ذنوبنا بشكل آخر. ان الإنسان يعيش مرة ليكسب السعادة في الآخرة. والحال ان حياتنا تمضي غارقة بالذنوب. فكم مرة يقترف النظر الحرام شاب يجول في الأسواق ويجوب الشوارع، وكم مرة يموت كل يوم.. كم مرة ينغمس في القاذورات، كم مرة يغرق في الأوحال ، كم مرة يُنزل الحرام الى معدته، بل كم مرة يركع ويسجد أمام الحرام، كم مرة يعصي ربه الجليل، كم مرة يهمل توقير الرسول الحبيب ﷺ، بل كم مرة يزل إلى الكفر بإنكاره القرآن الكريم... فلا ضمان لتطهير هذه الأجساد المليئة بالآثام إلا طريق الشهادة... البقاء في هذا الشعور والفكر، واغتنام الفرصة متى سنحت والإمساك بها، والسعي للفوز بذلك الموقع المعلى مضطربا اضطراب أبي عقيل... نعم ان هذا هو أسمى غاية لكل من حمل أمانة دعوة الإسلام العظيمة وينبغي ان يكون هذا. فالشهادة هي غايتنا ومطلوبنا وعشقنا...

ان افضل ما يعمله من أمضى حياته بالصالحات من الأعمال في منظومة من الشعر الرقيق أن يختمها بقافية الشهادة. وعندها تكسب الحياة قيمة أعظم وأغلى فتتفتح في رياض الجنة الى ما شاء الله ان تتفتح عن ذخائر مباركة، ألا يكافأ في الجنة على كل عمل من الصالحات. فالجنة وجهنم حوضان ومخزنان تجمعان أعمال الإنسان، فيتجمع الخير والطيب منها في الجنة والشر والخبيث في جهنم. ومن هذه الجهة فنحن بمثابة من ينسج الجنة وجهنم ويحيكهما خيطاً خيطاً.

إن تاج الأعمال الصالحة هو الشهادة بلا شك. والشهادة هي تسليم من نذر حياته في سبيل الله، وروحه إلى الله على بصيرة وعلم. لأن بصره قد تفتح في الدنيا فشاهد ما وراء الدنيا ولّما يزل فيها. وقد اجتنى الشهيد ثمرات الجنة لنذر حياته لله. ومن هذه الناحية فهو المحظوظ المختار من بين الناس.

إن من يريد أن يأخذ حظاً كاملاً من حياة مباركة طيبة عليه أن يقطّر عليها قطرات من الدم في سبيل الله ويكون شهيدا، كي يظفر بمطلوبه بأفضل ما يمكن. فالحياة التي لا تختم بالشهادة تترك فجوات مهما كانت معمورة بصالح الأعمال. أما الحياة التي أخذت نصيبها من الشهادة بشكل من الأشكال فليس فيها فراغ ولا فجوة فهي كالقصيدة التي اكتملت بقافيتها إلى آخر بيت. ففيها الانسجام والنظام والمحبة. الشهادة مفتاح ذو أسرار، تفتح أبواب الرحمة للسماوات والأرضين على مصاريعها. حيث يمضي الشهيد دون

حساب في المواضع التي يحاسب فيها حتى الأنبياء متوجها إلى ما أعد له من العوالم. الشهيد له حصانة. فلباسه الملطخ بالدم يمنحه الامتياز في المرور.

لقد حرص كل مؤمن بالله على الشهادة ختاما لحياته، في جميع المعارك الحاسمة والكفاح المستميت والحركات النضالية الجادة التي مرت في جميع الأدوار. ذلك لأن الله سبحانه يرضى عن أمثال هؤلاء من عباده، كما ذكر في حديث الرسول الكريم ﷺ: (عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ عجب ربنا من رجل غزا في سبيل الله فانهزم يعني أصحابه فعلم ما عليه فرجع حتى أهريق دمه فيقول الله تعالى لملائكته انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي حتى أهريق دمه). [١١٧]

---

١١٧ أبو داود، الجهاد،٣٨.

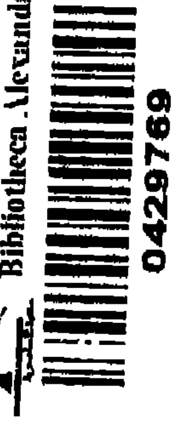
فهرس



إعلاء كلمة الله أو الجهاد

إن مفهوم الجهاد قد كسب ميزة أخرى بظهور الإسلام، إذ صار عَلَماً على تحقيق إيصال الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى بإزالة العوائق بينه وبين الله تعالى. وحيثما يُذكر الجهاد في الوقت الحاضر يرد هذا المعنى على البال.

إن الجهاد في سبيل الله يجري في جبهتين اثنتين: الأولى، موجهة إلى الداخل. والأخرى موجهة إلى الخارج. ويمكننا أن نعرّف كلاً من الجهادَين بالآتي: إن بذل الجهد إلى الداخل عبارة عن عملية إيصال الإنسان إلى ذاته وإلى ربه. أما الجهاد الآخر الموجه إلى الخارج فهو عملية إيصال الآخرين إلى ذواتهم وإلى ربهم. ويطلق على الأول "الجهاد الأكبر" وعلى الثاني "الجهاد الأصغر". حيث إن الإنسان بالأول يبلغ معرفة نفسه بعد اجتيازه العقبات بينه وبين نفسه حتى يبلغ معرفة الله الروحاني. أما بالثاني فتتحقق إزالة الموانع بين الإنسان وبين الله سواء بالنضال أو القتال، لإيصاله إلى الله التعرف عليه والعروج في معرفته.



إعلاء كلمة الله
أو الجهاد

تأليف
محمد فتح الله كولن

ترجمة
إحسان قاسم الصالحي

دار النيل
للطباعة والنشر

